عاشق
على
أسوار
القدس

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
٠٠٩٧٢٥٤٢٢٦٣٤٥٤
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz
*
عادل سالم
"عاشق على أسوار القدس"
(رواية)
*
الطبعة الأولى (٢٠١٢)
جميع الحقوق محفوظة
*
التصميم والمونتاج والإخراج
الريشة
*
لوحة الغلاف: "الإسراء والمعراج"
للفنان خالد المحرقي
*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر والمؤلف.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher and the author.

رواية

عادل سالم

عاشق على أسوار القدس

دار الجندي للنشر والتوزيع

إهداء

إلى زملاء الدراسة الذين فرقتهم الأيام، وتبدلت مواقع إقامتهم، ولكن موقعهم في القلب والذاكرة لم يتغير، بل بقي محتفظًا بأماكنهم لعله يلتقي يومًا بالأحياء منهم، فيستعيد معهم ذكريات لا تنسى:

إبراهيم القيسي. شوقي أبو غزالة. نادرة الدميري. سلام أبو غزالة. محمد علي عايد. سوسن أبو دياب. خالد القيسي. خولة عودة. باسمة أبو غربية. موسى منى. دينا بزبزت. شعبان أبو خلف. مرشد أبو صبيح. رجب الحشيم. هاني أبو خلف. خالد غنيم. وآخرون لا يتسع المجال لذكرهم.

(عادل)

(١)

كانت الشمس تختبئ خلف الأفق. ترسل أشعتها الحمراء إلى السماء لتحوّل الغيوم إلى براكين ترسل حممها إلى السهول والوديان المجاورة.

جلس سرحان على شاطئ بحيرة متشغن القريب من متحف السمك في وسط مدينة شيكاغو الأمريكية سارحاً في الأفق، بينما كانت زوجته وأولاده يطاردون الطيور المنتشرة على الشاطئ ليطعموها حبات قمح أحضروها معهم لتلك المناسبة.

إنهم يستمتعون بإطعام الطيور. ما أجمل ذلك الشعور! يطاردون الطيور ليطعموها، فيما آخرون يطاردون الناس ليسلبوها أعز ما لديها.

كان الجو صافياً ورائعاً في شهر أيار، مايو (٢٠٠٥).

يا لهذه اللوحة الفنية الرائعة. كأن القدر ساقني لأستمتع بما تبدعه السماء من لوحات جميلة، فيما يزرع أهل الأرض الحروب والمآسي والدمار.

سرح سرحان. خ في الآفاق، يستذكر أيامًا مشابهة كان يحدق فيها في السماء طوال الليل مع جمهور من الناس، الذين كانوا يقيمون الصلوات في المسجد الأقصى في ليلة القدر من كل عام في شهر رمضان المبارك. كانوا دائمي التطلع إلى السماء. يكثرون من الابتهال لعل السماء تفتح أبوابها لهم وتستقبل بوح قلوبهم.

المسجد يعج بهم، من كل الأعمار، نساءً ورجالاً، كل يحمل في قلبه دعاءه الخاص طالبًا من الله تحقيقه. كانت النجوم تشع عليهم ضوءها تدعوهم إلى المزيد من الدعاء.

- اللهم اشفِ لي ابني من مرضه.
- اللهم زوجني من أحب.
- اللهم ارزقني مالاً كثيرًا.
- اللهم اهدني إلى صراطك المستقيم.
- اللهم انتقم لي من فلان.
- اللهم اغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر.
- اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.
- اللهم انصرنا على اليهود المحتلين.
- اللهم...

كانت الأدعية تختلط ببعضها وهي في توجهها إلى السماء، فلا أحد يعرف صاحب كل دعاء سوى الله الذي يكرم فقط من اتقى، مصداق قوله تعالى: "إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم".

بعضهم كان يؤكد أنه أدرك السماء تفتح أبوابها، فقد رضي الله عنهم وتقبل دعواتهم.

كان سرحان يتساءل: لماذا يجب أن تفتح السماء أبوابها لاستقبال الدعاء؟ فقدرة الله أكبر من ذلك. إنه يعلم ما في قلوب الناس، وما يضمرون من خير وشر.

ما أروع تلك الليلة! أن تكون في المسجد الأقصى وقلب القدس ومركز ثقلها، يعني أنك قي قمة تاريخ الإنسانية وحضاراتها المتنوعة. من الصعب أن تتصور القدس بدون المسجد الأقصى، فهي بدونه كقطعة جرداء، كلوحة فنية بدون ألوان، أو كآلة موسيقية بيد عازف لا يعرف كيف ينطقها.

كان سرحان ومئات الشباب يقفون على السور ليشاهدوا منطقة سلوان، والمكبّر، وجبل الطور، الذي يقف شامخاً كشموخ أهلها، كأنه حارسها الأمين، يحميه ويحميها من الرياح العاتية التي تهب عليهم من كل مكان.

استلقى سرحان على العشب الأخضر على شاطئ البحيرة يراقب أولاده يطعمون الطيور، ينتقل بأفكاره بين شيكاغو والقدس، لا يعرف أين يستقر في سرحانه.

(جبل الطور، كيف أنساه؟ أليس على قمته كنت أقف دائماً أشاهد القدس عند المغيب؟ وعند شروق الشمس، عندما كنت أسكن هناك قبل ربع قرن؟ كيف يمكن أن أنسى ما رسخ في الذاكرة في سنوات الطفولة والشباب؟)

كانت زوجته إلهام.ع قد عادت لتجلس إلى جانبه بعد أن تعبت. لاحظت سرحانه، فاقتربت منه وقالت له:

- بماذا أنت سارح يا سرحان لنسرح معك؟

- في جبل الطور.

- إذًا أنت تتخيل القدس أمامك عند المساء، وتقارنها بهذه البحيرة الجميلة، وناطحات السحاب التي تحيط بها؟

- كأنك تعيشين في ذاكرتي.

تنهدت بعد أن اقتربت منه وقالت:

- أتذكر عندما كنا مخطوبين كيف كنا نجلس على جبل الطور نتسامر تحت ضوء القمر؟ كان المنظر أكثر روعة في المنطقة القريبة من مستشفى المطلع! هل تذكر؟

رد عليها وعيناه تلاحقان الأولاد في حركتهم:

- ذكريات لا تنسى.

ما يقلقني أن الأولاد يكبرون بسرعة في الغربة، ويفقدون ارتباطهم بالوطن. كنت أتمنى أن لا تكون ذكرياتنا ملكنا وحدنا، بل ملك أولادنا أيضًا، لكنهم اليوم يعيشون في غربة حقيقية.

- لعلنا أفضل من غيرنا، فنحن نعلمهم اللغة العربية، ونرسلهم إلى مدرسة إسلامية، فيما معظم أبناء الجالية العربية هنا لا يعرفون سوى الإنجليزية.

- لكنهم يخاطبون بعضهم بالإنجليزية، يستمدون ثقافتهم من المجتمع، والتلفزيون، والجيران، والصحافة، والمكتبة. اللغة ليست فقط وسيلة تخاطب. إنها مصدر معلومات. إنها جزء من ثقافة وحضارة.

- أليس هذا قدر شعبنا الفلسطيني أن يتشتت في المنافي الاضطرارية هنا وهناك؟

- صحيح، ولكن المغتربين العرب ليسوا فلسطينيين فقط. إنهم من جميع الدول العربية. إنهم يهاجرون إلى هنا بصفة مستمرة، ويقيمون هنا بشكل دائم، بعضهم يعيشون حالة الاغتراب ويحلمون بالعودة إلى أوطانهم، لكن أبناءهم يتوحدون في غربتهم كأنها وطنهم الأصلي. هذا

البلد كبير وواسع، يعلّم الإنسان الانعزال والتقوقع على نفسه. إنها حلم الجيل الجديد.

تنهدت ثم سألته:

- ألا تزال تحلم بالعودة؟

- أليس هذا ما أكرره كل عام؟ أليس هذا ما تحلمين به أنت أيضًا؟

- من أجل أولادنا نعم. لو كنا بدون أولاد لقلت لك انتظر عدة سنوات أخرى، فالحياة الآن في القدس صعبة. أهلي يقولون لي إن الوضع الاقتصادي متدهور، والوضع الأمني سيء.

- في كل عام نجتر الحديث نفسه، ونكرر الأقوال نفسها، ونستمهل العودة إلى العام الذي يليه، ثم الذي يليه... وهكذا.

- أنت يا حبيبي من يؤجل ذلك. دائمًا تقول: سنعود إلى القدس هذا العام. ثم تؤجله إلى العام الذي يليه حتى أصبحت عودتنا كطائر يتأرجح بين الأرض والسماء. لا تنس أن المسألة ليست سهلة؛ فاليهود سيعدوننا زوارًا وليس مواطنين، وقد نطرد من وطننا، لذلك عودتنا ستكون إدامة صراع من أجل البقاء.

نظر إليها وقال:

- سنحسم هذا التردد. سنعود هذا العام .

- إذًا علينا العودة بعد عطلة المدرسة لكي نستطيع تسجيل الأولاد في المدارس للعام الدراسي القادم، فليس من السهل تسجيلهم هناك في وقت متأخر.

- حسنًا. لنبدأ بالتحضير للعودة.

- لا تنس عملك، والبيت، والسيارة...

- حسم الموضوع يحتاج إلى بعض التضحيات. سأبدأ من الغد بتحويل كل القضايا العالقة عندي إلى مكتب صديقي المحامي فادي.

- ألم تتسرع؟

- أعتقد أننا تأخرنا في تنفيذ القرار، إما الأولاد وإما الفلوس، وقد اخترت الأولى.

- اخترنا الأولى، العودة إلى القدس.

نادى سرحان أولاده (حسن)، و(عبير)، و(بلال)، بعد أن كاد الليل يرخي سدوله، فقد كانوا جميعًا يلهثون من التعب.

- هل استمتعتم باللعب؟

قال بلال:

- أنا أطعمت العصافير.

وقال حسن:

- كانت الطيور تأكل القمح من على رأسي.

أما عبير فقالت:

- بابا أنا جوعانة. أريد أن آكل. أريد "همبرغر".

صاح بلال:

- وأنا أريد بطاطا مقلية "فرايز".

أما حسن فقال:

- بابا أنا أقترح أن تأخذنا إلى المطعم الإيراني "ريزا"، فهو ليس بعيدًا من هن، ويحوي بوفيه فيها كل شيء.

أما إلهام فقالت:

- ما رأيكم بمطعم السمك؟

صاح بلال وحسن معًا:

- لا نريد سمكًا.

قال لزوجته:

- يبدو أننا كلنا متعبون، فلماذا لا نذهب إلى البيت؟ وهناك تحضرين لنا عشاء ساخنًا على ذوقك.

فردت عليه:

- لقد قلتها بنفسك: كلنا متعبون؛ يعني أنني غير قادرة على تحضير الأكل. آه لو تحملني إلى السيارة.

فقال حسن:

- إذًا إلى المطعم الإيراني.

عبير:

- أنا مع ماما.

بلال:

- أريد بطاطا.

نظر سرحان إلى زوجته وقال لها:

- آه من امرأة عربية إذا تَأَمركت!

ثم ضحك ضحكة طويلة وقال:

- إلى مطعم "ريزا".

صاحوا جميعًا:

- هيه.

(٢)

لأول مرة يتخذ سرحان وإلهام قرارهما بالعودة إلى القدس دون تردد. فقد مر على وجوده في الولايات المتحدة (٢٥) سنة، أي ربع قرن كامل.

ولد سرحان في القدس العام (١٩٦٠)، في ظل العهد الأردني، في البلدة القديمة من القدس، والتحق في المدرسة البكرية فيها، وبعد الحرب انتقل أهله إلى منطقة الطور خارج البلدة القديمة، وظل هناك حتى تخرج من المدرسة العام (١٩٦٧)، حيث جاهد للحصول على "فيزا" طالب للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي العام (١٩٨٠) كان أحد طلاب جامعة "إلينويس" في شيكاغو، حيث التحق بكلية الحقوق، وخلال دراسته تعرف إلى طالبة أمريكية من أصل إيطالي تدعى "سالي ألدورادو". تزوجها بعد عدة شهور، وحصل من خلالها على بطاقة الإقامة الأمريكية، ثم الجنسية الأمريكية. زواجه من سالي لم يستمر، فقد دب الخلاف بينهما أكثر من مرة لعدم التجانس الفكري، فانفصلا بعد زواج دام أربع سنوات دون أن يثمر زواجهما عن أي طفل.

بعد تخرجه من الجامعة وممارسة مهنة المحاماة بعد فترة التدريب افتتح مكتبًا رسميًّا متخصصًا في قضايا الضرائب والشركات العام (١٩٨٨).

العام (١٩٩٠)، كان قد استجاب لوالده مهند وأمه ثريا بالعودة إلى القدس للزواج فكانت إلهام من نصيبه، حيث أعجب بها وبثقافتها. كان سرحان أكبر إخوته الدكتور بسام، والتاجر عدنان، ولديهم شقيقة اسمها سلوى أصغرهم جميعًا.

أما إلهام التي أحبها وتزوجها، فكانت أصغر أشقائها وشقيقاتها. لها أخ صحافي اسمه أمين، أما أخوها البكر فيدعى أحمد. ولها شقيقتان هما سهام شقيقتها الوسطى، وسوسن أختها الكبرى.

زواج سرحان من إلهام جاء لقناعته أن زواج الإنسان من خارج بيئته وثقافته غير مضمونة النتائج، وقد تكون مشكلة لأطفال المستقبل، الذين سيعانون من تباين ثقافتين مختلفتين.

عاد سرحان مع زوجته إلهام بعد زواجه منها بعدة شهور إلى شيكاغو حيث كان يعيش، واشترى بعد فترة بيتًا في منطقة "تنلي بارك"، وبدأ يكافح في عالم الشركات والضرائب حتى أصبح محاميًا مشهورًا.

أنجبت له إلهام ثلاثة أطفال أكبرهم حسن الذي ولد العام ١٩٩١، ثم عبير التي ولدت العام ١٩٩٥، وبلال الذي ولد العام ٢٠٠٠، فاكتفيا بهم، وقرّرا وقف الإنجاب ليهتمّا بتربيتهم وتعليمهم.

لم يكن سهلاً تنفيذ القرار؛ فعلى سرحان البدء بعرض بيته وأثاث البيت والسيارتين للبيع، وتحويل القضايا التي يترافع عنها إلى صديقه المحامي فادي. وكان كلما تساءل: "هل تسرعتُ باتخاذ القرار؟"، يرد على نفسه: "لا لقد تأخرت في اتخاذه."

كان سرحان يدرك في قرارة نفسه أن العودة ليست مجرد الانتقال إلى مدينة جديدة، فالعودة تعني تغييرًا في نمط الحياة وأناسها. تغييرًا في العمل، إذ يجب إيجاد عمل مناسب هناك. تغيير لغة التدريس للأولاد. تغييرًا في أصحابهم وعلاقاتهم.

بالنسبة إليه، فهو تغيير إلى الأحسن؛ فغدًا سيصبح بإمكانه السهر مع أشقائه وشقيقته ووالديه. سيعود إلى الشوارع والحارات التي عاش فيها ورأى النور بين جدرانها. أما بالنسبة إلى لأولاد، فهو عالم جديد. صحيح أنها بلدهم الأصلي، لكنها بلد مثقلة بأحزانها، وآهاتها تحمل هموم العالم كله. ليس فيها الكثير من الألعاب، والنوادي قليلة لا تقارن مع النوادي التي تعوّدوا عليها في الولايات المتحدة.

كل الأهل تقريبًا فرحوا بقرار سرحان وإلهام بالعودة إلى القدس.

قال له أبوه:

– يكفينا غربة يا ولدي. لا نريد أموالاً. يكفي أن نجتمع معًا هنا في سهرة أو مناسبة، فهذا أفضل من كل شيء.

بعض الأقارب هالهم قرار سرحان وإلهام، فاتصلوا يلومونهم، ويحثونهم على البقاء في أمريكا.

قال له أحدهم على الهاتف:

- أتعودون بهذا الوضع؟ الاقتصاد متدهور. انفلات أمني. انحلال اجتماعي. حواجز التفتيش في كل مكان. من يترك أمريكا ويعود إلى القدس؟

لم يتأثر سرحان بأقواله، فقد هيأ نفسه لمثل تلك الأقوال. إنه يعود من أجل أولاده. يريدهم أن يكونوا فلسطينيي الانتماء، عرب الثقافة والحضارة، لا أمريكيين بلباس عربي.

بعد أيام بدأت تنهال عليهم الطلبات من الأقارب في القدس:

- أرجو أن تشتروا لي بوط رياضة "جوردان".

- أريد كاميرا "دجيتال" صغيرة لعملي الصحفي.

- أرجو أن تحضروا معكم حاسوبًا يدويًّا صغيرًا.

لم تكن إلهام تعرف كيف تعتذر لهم فالحقائب تكاد تتسع لملابسهم لأنهم سيحملون معهم كل ما يستطيعون حمله، فهم في طريق العودة وليس للزيارة. لذلك كان على سرحان أن يشرح ذلك للجميع.

لم يكن الأولاد خصوصًا حسن وعبير سعداء بهذا القرار؛ قرار العودة إلى فلسطين بالنسبة لهم قرار إلى المجهول.

- هل هي وطنهم؟ أيوجد ألعاب هناك؟ هل يوجد إنترنت؟

- هل يوجد أصدقاء؟

- هل سيعودون إلى هنا؟

- هل يوجد "سيريال" مع الحليب؟ هل يوجد "همبرغر" مع جبنة؟

كانت أسئلتهم تنهال على سرحان، وهو يجيب عليها بهدوء وبطريقة مثيرة ومشجعة، حتى هدّأ من مخاوفهم.

كان حسن يقول لأمه:

- ماذا لو كانت الحياة مملة هناك، هل سنرجع؟

- لا.. لن نرجع لأننا سنجعلها ممتعة.

- ماذا لو لم يجد أبي عملاً هناك؟

- أبوك محام قد الدنيا. سيجد عملاً بلا شك.

وأخيرًا سألها ما يدور في رأسه:

- عندما أنهي المدرسة هل ستسمحون لي بالعودة للدراسة في الجامعة هنا؟

ضحكت وقد فهمت ما يريد:

- عندما تنجح سنفكّر في الأمر.

- وماذا لو رفض أبي ذلك.

- اتركه لي، فأنا سأقنعه.

(عندما يكبر الأولاد تزداد مطالبهم، وتتسع معارفهم، فلا يعودون يقنعون كما السابق بأي جواب.

أسئلتهم كثيرة يريدون معرفة كل شيء. على الآباء ألا يمنعوهم من طرح الأسئلة، وأن يكونوا صادقين في الإجابة، فإن كذبوا عليهم علموهم الكذب، وإن صدقوا علموهم الصدق منذ صغرهم.

ما يطرحه الأولاد كله صحيح: ماذا لو لم يجد سرحان عملاً هناك؟ ماذا لو تم ترحيلنا من القدس؟ ماذا لو أعادونا من المطار ولم يسمحوا لنا بالدخول؟ أليس من الأفضل أن نترك بيتنا وأغراضنا حتى نتأكد أننا سنصل بر الأمان؟)

لم يغب ذلك كله عن مخيلة سرحان، لكنه رأى أن الإنسان عندما يتردد في العودة فقد يتردد في التنفيذ، وأنه لا يرغب أن يضع قدمًا هناك وقدمًا هنا.

(٣)

الطائرة تحط في مطار تل أبيب. الفلسطينيون يسمونه مطار اللد لأنه بني على أراض تابعة لمدينة اللد قبل حرب العام (١٩٤٨). معظم اليهود يصفقون فرحين لوصولهم.

أيقظ سرحان الأولاد وهيّأهم للخروج حالما تقف الطائرة في الممر الخاص بها. نظر إلى زوجته والأولاد وقال لهم:

- الحمد لله على السلامة.

كان الجميع فرحين بوصولهم، فقد أضناهم السفر، فالسفر ساعات طويلة متعب حتى لو بطائرة، فكيف بطائرة متجهة إلى تل أبيب. كل العيون مشدودة إلى المسافرين العرب إن تحركوا، أو جلسوا، أو وقفوا، وحتى عندما يذهبون إلى الحمام.

مطار تل أبيب يختلف عن كثير من المطارات الأخرى في العالم بكثرة رجال الأمن فيه، تحسبهم بلباسهم المدني أنهم ركاب، وأحيانًا لا تميزهم عن غيرهم إلا إذا راقبت حركة عيونهم، وكيف يسترقون النظر إليك.

المطار كبير جدًّا، أكبر من المطار السابق الذي يعرفه سرحان، فقد بنت إسرائيل مطارًا جديدًا أكبر وأكثر نظامًا.

تعب الأولاد من المشي قبل الوصول إلى قسم الخروج. كان المسافرون على الدور. وقف سرحان في طابور الإسرائيليين، فليس هناك سوى خيارين؛ الإسرائيليون (المواطنون) والسياح، وهو ليس سائحًا، فهذه بلده، لذا اصطف في قسم الإسرائيليين. أحيانًا يضطر الإنسان إلى أن يختار بعكس قناعاته لأنه الطريق الوحيد إلى هدفه.

أخرج سرحان جوازات السفر كلها مع أوراق المطار التي تقدم للمسافرين بالطائرة لتعبئتها بالمعلومات اللازمة لتقديمها لموظفي المطار، وما أن وصل دوره حتى قدم الجوازات والبطاقات إضافة إلى ورقة كتب عليها أرقام هويتي سرحان وإلهام.

نظرت الموظفة اليهودية إليه، كانت قصيرة القائمة رفيعة جميلة القوام. لم تبتسم عندما عرفت أنهم عرب. سألته لماذا أنت في هذا القسم؟

– أنا مواطن هنا، ولست سائحًا.

– أين بطاقة الهوية؟

أشار إلى الورقة التي تحمل الأرقام.

بدأت تدخل الأرقام إلى الحاسوب ثم سألته:

– أين جواز سفرك الفلسطيني؟

- ليس لدي جوازات سفر فلسطينية.

- رفعت سماعة الهاتف، وبدأت تحدث أحد المسؤولين بالعبرية. خفضت صوتها حتى لا يسمعها أحد. بعد دقائق وقفت. أغلقت الشباك الذي تعمل فيه، ثم قالت له اتبعني.

أخذتهم إلى القسم الخاص بمسؤولي المطار. طلبت منهم الجلوس مع العائلة والانتظار هناك. دخلت إحدى المكاتب الكثيرة هناك، وبعد دقائق خرجت وغادرت المكان.

بعد حوالي نصف ساعة خرجت إحدى الموظفات، يبدو أنها كبيرة السن. سألته مرة أخرى عن جواز سفره الفلسطيني، فأكد لها أنه لا يحمل جواز سفر فلسطينيًّا، فسكان القدس لا يحملون جوازات سفر فلسطينية حسب اتفاق (أوسلو)، فلماذا السؤال؟

هزت رأسها وعادت إلى مكتبها. بعد عشر دقائق خرجت تحمل الجوازات. أعادتها إلى سرحان، وأشارت له إلى جهة الخروج. كانت هناك ورقة بيضاء في داخل كل جواز سفر، اعتقد سرحان إنها تعني أن الأمور على ما يرام. استغرب تلك المعاملة غير المتوقعة، فعادة يسألون المسافر العربي عشرات الأسئلة: من أين جئت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ ولماذا جئت؟... الخ من الأسئلة. فتح الجوازات ليتأكد من الأختام فرآها كلها مختومة بخاتم فيزا سياحة!

– سياحة؟! ولكني لست سائحًا؟

لحق بالموظفة في مكتبها، وسألها:

– لماذا فيزا سائح؟

– لأن بطاقة هويتك أنت وإلهام ملغية والأولاد ليس لهم سجل لدينا.

– ولكني...

قاطعته.

– هذه معلومات مكتب الداخلية. اذهب إليهم غدًا واشرح لهم الموضوع، وهم أصحاب القرار ولهم السلطة.

سكت، فقد كان يتوقع ذلك. معركته ليست هنا، معركته في القدس، فليس أسهل من إعادته من المطار.

الساعة الثانية صباحًا عندما وصلوا إلى قسم المسافرين. كان على الباب أحد الموظفين، وعندما رأى الورقة البيضاء ابتسم لهم، وطلب منهم اللحاق به.

أخذهم إلى قسم استلام الحقائب، وأشار إليهم بيده إلى العربات، وطلب منهم التعرف إلى حقائبهم. كان يحمل جوازات سفرهم جميعًا، وينتظرهم على بعد عدة أمتار.

بدأ سرحان وحسن بسحب الحقائب ووضعها في العربات، وبعد أن انتهوا جلس بلال على إحداها لأنه كان يشعر بالتعب، فيما جلست عبير

على العربة الثانية. لحقوا جميعًا بموظف المطار اليهودي إلى قسم فحص وتفتيش العرب والمشتبه بهم من غير العرب. كانوا عدة موظفين يجلسون أمام شاشات وبجانبهم ماكينة الفحص، جهاز جديد لم يكن يستخدم سابقًا للعرب، يتم إدخال الحقائب به واحدة تلو الأخرى، فإن ظهر أن بها موادّ معدنية أو كهربائية يطلب فتحها وتفتيشها، وإن لم يظهر شيء من هذا القبيل، تم إعادتها إلى العربة. بعد ذلك، طلب منهم الدخول واحدًا واحدًا إلى غرفة صغيرة للتفتيش الجسدي الشامل؛ موظفة أمن تقوم بتفتيش النساء والبنات، وموظف خاص للرجال والأولاد بمن فيهم بلال. خاف بلال في البداية، لكن أباه طمأنه وظل بجانبه.

بعد انتهاء التفتيش سأل بلال أباه:

- لماذا فتشوني؟

- هذه إجراءات المطار في إسرائيل.

- ألسنا ذاهبين إلى فلسطين؟ لماذا نحن في إسرائيل؟

- لأن إسرائيل تحتل فلسطين.

- لماذا تحتل فلسطين؟

نظر أبوه إليه وقال له:

- سأشرح لك ذلك فيما بعد.

ثم تمتم في سره: "لهذا أعدتكم لتعرفوا لماذا إسرائيل تحتل فلسطين!"

تابعوا سيرهم إلى خارج المطار، فليس معهم شيء للجمارك. فتح الباب، باب الخروج...

ما هذه التغييرات يا إلهام؟ أرجو أن نعثر على الأهل. خرجوا من الباب. لم يروا أحدًا. تقدموا عدة أمتار. فجأة كان أبوه وأمه وأخوه عدنان يقفون على بعد مائتي متر. صاحت إلهام باتجاههم. أسرعوا الخطوات فالتقوا في منتصف الطريق. تعانق الجميع. قبّل سرحان أيادي والديه وحماه. تبعه عناق حار. كان كل منهم يسابق الآخر في العناق والقبلات. فوجئ بلال بهذا الترحيب، فالكل يهجم عليه ليقبله. كلهم يمازحونه لأنه أصغرهم.

سأله جده لأبيه:

- كيفك يا بلو؟

رد عليه بلال بلهجته الطفليّة:

- الحمد لله.

فرح الجد بسماع تلك الكلمة.

ما أروع أن يستأنس الأجداد برؤية الأحفاد؛ إنه شعور رائع لا يعرفه سوى من يصبح جدًّا.

إنه يشعرهم أن نسلهم لا يزال حيًّا، وأنهم أثمروا من سيعمر الأرض ويحافظ عليها، لكن الأجداد في فلسطين لديهم شعور أعظم، لأنهم

يشعرون بأن قضية فلسطين قد انتقلت إلى الأبناء ومنهم إلى الأحفاد، فيغادرون هذه الحياة والبسمة لا تفارق وجوههم.

أم أحمد (أم إلهام)، اقتربت من عبير وسألتها:

- كيف حالك يا عبير؟

- أنا مبسوطة لأني تعرفت إليك.

- وأنا أيضًا. إن شاء الله غدًا ستفرح بك خالاتك وعماتك.

نظر سرحان إليهم جميعًا. قال لهم:

- يبدو أن السنين سرقت منا أجمل عمرنا! مالي أرى الشيب وقد غزا رؤوس بعضكم؟ هاها.

قال له حماه:

- هذا المشيب مع الأحفاد أفضل من شباب بدونهم.

قال لهم عدنان أخو سرحان:

- اتبعوني إلى موقف سيارات فقد عطلنا الطريق.

كان أمين أخو إلهام مشغولاً بالتقاط صور اللقاء، فيما تابع الجميع التقدم تجاه السيارات.

كانت بانتظارهم ثلاث سيارات لكثرة الحقائب التي يحملها سرحان وأولاده. (١٣) حقيبة، وهذا بعض متاعهم، فلم يكن باستطاعتهم حمل كل أغراضهم. باعوا الكثير منها بما فيها ألعاب الأطفال إلا جهاز "الجيم

بوي" لبلال، فقد أصر على حملها معه، فكانت في حقيبته، ولولاها لما سكت بالطائرة، ولظل يشغلهم بتحركاته وأسئلته.

ركب الجميع، وانطلقت السيارات كلها إلى بيت عدنان. كانت زوجته والأولاد بانتظارهم، فقد أعدت عشاء، أو فطورًا مناسبًا. كانت الساعة حوالي الرابعة صباحًا، وما أن وصلوا البيت حتى اقتربت من الخامسة.

(٤)

سرحان والعائلة في القدس بعد غياب طويل دام ربع قرن. أكثر من نصف عمره قضاه في الغربة. عاد خلالها مرة واحدة ليتزوج إلهام. مكث عمرًا، فعدّه دهرًا.

هذه المرة لا يعود للزيارة، ولكن للاستقرار النهائي فيها. لعلها سنّة الحياة. الشبان يحبون السفر والمغامرة، والكبار يحبون الاستقرار والراحة النفسية.

كان بإمكانه أن يجعل المنفى وطنه النهائي كحال الكثيرين من أبناء العرب المغتربين خصوصًا وأنه كان محاميًّا مشهورًا، ولديه بيت وأولاده ولدوا هناك، ويشعرون بالحنين إلى البلد الذي ولدوا فيه، لكنه قرر أخيرًا العودة إلى الوطن.

لماذا هذا الإصرار على أن يتربى الأولاد في وطنهم؟ هل هي اللغة؟ ماذا لو جعلوا الإنجليزية لغتهم؟ ملايين المغتربين العرب وغير العرب اندمجوا في المجتمعات التي عاشوا فيها، وصاروا جزءًا منها.

سرحان يختلف عنهم جميعًا، أو لعله واحد من الذين ينظرون إلى الأمور بمنظار آخر، يرى فيه مالا يرونه، أو لعله يفكر بطريقة أخرى. مَن يدري؟ لعلها الأبعد نظرًا. أو كأن لديه حاسةً سادسة يحس بها الأشياء قبل وقوعها. أهو الخوف من تداعيات الغربة؟ أم هو الشعور بالذنب لأنه ترك الوطن ينهشه الأعداء؟

اللغة لدى سرحان ليست مجرد وسيلة تخاطب، إنها وعاء ثقافي وحضاري، يحرص سرحان على أن تنتقل من جيل إلى جيل عبر أبنائه كأنهم أصحابها الوحيدون، وربما مالكُوها الذين يتوارثونها جيلاً بعد جيل.

هذا الإصرار على التمسك بهذه الحضارة، والثقافة، واللغة، لعل الاحتلال الصهيوني سببه، فقد جاء إلى فلسطين ليهدم ذلك كله، ويسلب ليس الأرض فقط، بل واللغة والثقافة والتراث، حتى الحمص والفلافل صاروا يعدونها غذاء من التراث اليهودي. إذا انكفأ العرب مؤقتًا، فعلى الأقل يمكنهم الحفاظ على ثقافتهم وحضارتهم.

الصراع الثقافي تشارك به الأجيال، الآباء، الأمهات. صراع بدون طلقات نارية، وبدون مدافع. إنه صراع العقول. صراع المفاهيم. صراع الانتماء. إنه الصراع الأصعب.

كان سرحان يعرف أن أمامه مهمة كبيرة، فأولاده بحاجة إلى اهتمام باللغة العربية لأن الإنجليزية لغتهم الأساسية، على الأقل حسن وعبير، أما بلال فلا يزال أمامه سنة ليلتحق بالمدرسة.

(العودة إلى الوطن الفلسطيني ليست مجرد قرار إداري، فهي تحتاج إلى صبر وتحمل وإرادة قوية.

اليهودي القادم من بلاد الروس، مثلاً، يجد حكومة تساعده، فتقدّم له سكنًا ومدارس مجانية لأولاده، وبرامج خاصة للقادمين الجدد، وتساعده في إيجاد عمل.. الخ. أما الفلسطيني العائد فهو أمام مهمات ومعاناة كبيرة عليه مواجهتها وحده.)

نظر إلى إلهام بعد أن استيقظ من نومه ظهرًا. لم ينم سوى ثلاث ساعات، فكيف ينام وأمامه الكثير من العمل. قال لها:

– صباح الخير يا حبيبتي. الحمد لله.. نحن في القدس الآن. سأذهب اليوم مع أخي عدنان لرؤية عدة شقق للإيجار، لعلنا نختار إحداها فنبدأ بشراء الأثاث لها. أريد أن أشعر بالراحة لأنام ليلي بهناء.

قالت له:

– لا نوم بعد اليوم، فالمهمات الصعبة تداهمنا. لا تنس، فاليوم سنكون مشغولين باستقبال المهنئين من أهلنا. سيكون بيت أخيك مزارًا اليوم.

– صحيح، لم أر أخي الدكتور بسام وأختي سلوى وأولادهما. لا بد أنهم ينتظرون أن نصحو من النوم.

(٥)

شعرت إلهام براحة كبيرة بعد انتقالها إلى شقتها الجديدة، فقد اشترت مع سرحان كامل أثاث البيت من "منجرة الجولاني" القريبة من شارع القدس- رام الله، الذي لا يبعد كثيرًا عن سكنهم الجديد.

حرص سرحان على تجهيز غرفة المكتبة بجهاز حاسوب مرتبط بالشبكة العنكبوتية التي كان الأولاد يتسابقون على استخدامه، لكن إلهام كانت تحرص أن تحدد مدة ساعة لكل منهم، حتى لا يضيعوا أوقاتهم في اللعب. وقد حرصت منذ البداية على إيجاد الفرص لبناء صداقات جديدة للأولاد من الأقارب والجيران حتى لا يشعروا بالفراغ، وكانت تساعدهم على انتقاء أصدقائهم، فأولاد العمات والخالات والأعمام والأخوال كثيرون، ولن يشعر الأولاد أن التنقل بين أماكن السكن صعب جدًّا، حتى بعد أن اشترى سرحان سيارة للعائلة من نوع سوبارو، لأن حواجز التفتيش لم تكن تسمح للناس التنقل بأمان وبالسرعة المطلوبة، لذلك ظلت علاقة الأولاد بأقاربهم تعتمد على المناسبات،

ولكن نمت بدلاً منها العلاقات مع أبناء الجيران. هناك في الولايات المتحدة كان الأولاد يلتقون في الأندية، لكن هنا يلتقون في الشارع، الشارع هو النادي، وهو مكان اللهو واللعب. الأندية نادرة، ولا تضم كل الأطفال، ولم تعد آمنة كما كانت أيام زمان؛ فالأهالي لم يعودوا كالسابق يسمحون لأبنائهم الابتعاد عن البيت إلا بصحبة من هم أكبر سنًّا منهم.

سيارة العائلة كانت من الحجم الصغير، وليست مثل سيارتهم في أمريكا (جي. أم. سي) الكبيرة الجديدة. كل شيء هنا تغير حتى السيارة. أسعار البنزين أعلى من الولايات المتحدة، وبعض المواد الغذائية كاللحوم أسعارها أعلى بكثير على الرغم من أن الأجور هنا أقل.

أوضاع اقتصادية صعبة تجبر سرحان أن يقنّن نفقاته، فلا يدري متى يبدأ عمله الجديد.

الأوضاع الاقتصادية الصعبة تدفع الناس دائمًا تجاه طريق واحد؛ الهجرة من الوطن للبحث عن وضع اقتصادي أفضل. المهاجرون يحققون رغمًا عنهم حلم إسرائيل بتهجير سكانها.

لكن، ماذا يمكن لرب الأسرة أن يفعل عندما تسد في وجهه كل الطرق؟ هل يتحول إلى لص؟ أليس من حقه تعليم أولاده وإرسالهم إلى الجامعات، أم أن الحياة موسوعة الإنسان الأولى؟

لماذا الفقراء هم الذين يُفرض عليهم دائمًا الصبر والتضحية، فيما الأغنياء هنا وهناك يقيمون سهراتهم وحفلاتهم حتى أثناء القصف الإسرائيلي على أبناء شعبهم؟!

في شقته الجديدة صار بإمكان سرحان استقبال الأهل كل يوم، أو زيارة بعضهم الذين كانوا يتسابقون لدعوته والعائلة لحفل عشاء يقام على شرفهم؛ فمرة لدى أهله، وأخرى لدى أهل إلهام. لم يبق أحد من العائلتين لم يزر سرحان في بيته الجديد وتقديم الهدايا المناسبة.

هذه الشقة ستكون مباركة؛ فهي أول شقة في فلسطين تسكنها عائلة سرحان. إنها قاعدته الأساس نحو الانطلاق إلى شوارع الوطن وحاراته. إنها مكانه الذي لا يعرف الراحة خارجه.

في إحدى سهراته مع الأهل قال لهم:

- أنا سعيد بوجودكم. أشعر بفرح حقيقي، ونحن في هذا اللقاء استعدت أيام زمان حين كنا نجتمع معًا على العشاء كعائلة واحدة.

رد عليه أمين (أخو إلهام الصحافي العامل مع وكالة رويتر للأنباء):

- يا أبا حسن، ما تراه اليوم قد لا تراه كل يوم، فالناس هنا تغيروا أيضًا، وليس فقط في أمريكا. في الماضي كان الناس يكثرون من الزيارات واللقاءات، لكن تطور التكنولوجيا والفضائيات جعلتهم أسرى بيوتهم، فمن خلال الحاسوب يلتقون، ويتسامرون، ويتراسلون. أصبح لديهم ما

يشغلهم ويلهيهم عن لقاءات الماضي. الهاتف الخلوي أخذ حيزًا أيضًا في حياة الناس، فالحوارات الهاتفية زادت، لذلك لم يعد اللقاء المباشر ضروريًّا. حتى المعايدات، وحتى التعازي، صارت بصيغ أنموذجية على الهاتف الخلوي.

– حول الهاتف النقال، لقد لاحظت خلال تجولي في القدس أن الناس يستخدمون الهاتف الخلوي أكثر من أمريكا.

فقالت سهام أخت إلهام:

– إنها ظاهرة منتشرة، سببها قلة الأعمال، وإضاعة الوقت في الثرثرات والكلام الفارغ. يا أبا حسن والحديث للجميع، حتى العتالين وأصحاب الحمير وعمال النظافة، يستخدمون الهاتف الجوال أثناء عملهم.

وضعت سهام يدها على أذنها تحاول تقليد أحد الحمّارة عندما يستخدم الهاتف محدثًا زوجته:

– ألو.. ماذا طبخت؟

– طبخت مقلوبة.

– بس؟ (فقط؟).

– وأيضًا فاصوليا خضراء باللحمة.

– بس؟

– وجهزت سلطة.

- بس؟

- ولدينا لبن رايب منذ الأمس.

- بس؟

- وماذا تريد غير ذلك؟

- أريدك أنت.. هاها ها ها ها.

- إياك أن يسمعك أحد في الطريق.

- وليسمعوا. لا يهمني. أنت زوجتي.. حلالي.

- إذًا لماذا لا تأتي وتتناول الغداء ثم تعود إلى العمل؟

- لا أستطيع، فأنا مشغول.

- مشغول؟ مع من مشغول؟

- ما هذا السؤال: مع من مشغول؟ مع الحمار طبعًا.

ضحك الجميع لتقليد سهام.

يتدخل أبو أحمد (والد إلهام):

- حتى أولاد المدارس سبحان الله أصبحوا يحملون الهواتف الخلوية، كل طالب حتى ابن عشر سنوات لديه هاتف خلوي، وكل طفل يغار من صديقه ويطالب أهله بالمثل، بل أحسن وأغلى ليتباهى به أمام زملائه وأصحابه حتى صارت صرعة العصر.

فرح حسن لما يسمع، فقال لأبيه:

– أرأيت؟ كل ولد لديه هاتف، يعني يجب أن تشتري لي هاتفًا خلويًّا.

ثم قالت عبير:

– وأنا أيضًا.

أما بلال فأصر على هاتفين، وعندما سأله أبوه لماذا هاتفين؟ فقال له:

– تلفون أتصل به مع ماما، والثاني أتصل به مع بابا.

ضحك الجميع. لم يعرف سرحان ماذا يقول، فقد كان أولاد ضيوفه الحاضرين يحملون هواتف خلوية كأنهم يحملون بطاقاتهم الشخصية.

سألهم جميعًا:

– هل هي ظاهرة الجيل الجديد هنا؟

رد عليه أمين قائلاً:

– لعل الاحتلال سببها الأساس، فالناس بشكل عام أصبحوا يخافون على أولادهم من حوادث اعتداء المستوطنين عليهم، أو حواجز التفتيش المتنقلة الكثيرة، لذلك يعتقدون أنهم بذلك يساعدون أولادهم في الاتصال بهم إن واجهتهم مشكلة لمعرفة مكانهم. إنها وسيلة للاطمئنان على الأبناء، لكنها لم تعد فقط لذلك، بل تعدد استخدامها حتى صعب إيقافها.

– ألا ترون أنه تبذير أمام الوضع الاقتصادي المتدهور؟

قالت سوسن:

– بلى إنه كذلك، وعلينا التوقف عن تلبية كل طلب للأبناء، بعضهم يستوعبون وآخرون لا يتركون فرصة إلا وطرحوا فيها تلك الأمنيات، حتى صرنا نشتري لهم الهاتف للاستراحة من أسئلتهم.

أبو أحمد:

– لقد عشت في عهد الإنجليز، وأيام الأردن، لم يكن لدينا لا هاتف ولا تلفزيون، وكنا سعداء.

نسهر مع العائلة على ضوء القمر نتسامر مع كأس من الشاي على صوت الربابة... إييه!

أم أحمد:

– لا تثر شجوني يا أبا أحمد، دخيلك. تلك أيامٌ مضت.

إلهام:

– لم يعد جيل اليوم يهمه لا الربابة ولا الشاي مع النعنع. يريدون الكولا ونانسي عجرم.

تدخل ناصر ابن سهام، الذي كان معها في السهرة، وقال:

– نحن من جيل كاظم الساهر وشيرين. أنا أعشق كاظم.

فقال له جده أبو أحمد معلقًا:

– فقط كاظم الساهر؟ ألا تعشق هيفاء؟ هاها.

ضحك الجميع، فردّ ناصر ابن العشرين سنة على جده:

– هذه ليست مطربة يا جدّي. إنها راقصة.

فسأله جده:

– ما رأيك برقصها؟

فحرك حواجبه وابتسم. لم يرد. خجل من الجالسين، لكنه اكتفى بابتسامة عريضة تنمّ عن سعادته لرقصها.

استدار سرحان إلى الصحافي أمين وسأله:

– قل لي يا أمين، ماذا تفعل الصحافة تجاه مشكلة سكان القدس وقيام إسرائيل بترحيل من يسكن خارجها وإلغاء حقه في البقاء في القدس أو العودة إليها؟

– نكتب دائمًا عن ذلك، ونجري اللقاءات مع المتضررين، لكن المهم أن يجري تحرك فلسطيني، وعربي، ودولي لإجبار إسرائيل على وقف جرائمها، وكما ترى فالوضع سيء جدًّا. لقد أخطأ السيد عرفات عندما وقع اتفاق "أوسلو" منفردًا. لقد حرر العرب من التزامهم بمقاطعة إسرائيل، وعندما اختار التفاوض، دفع الناس إلى انتفاضة ثانية، وها هي الأمور تسير إلى الهاوية .

– هل ترى في الأفق حلاً سياسيًّا قريبًا؟

– لا أرى أية بشائر. قضيتنا تعود إلى الخلف. لم نحسن إدارة المعركة، ولا حتى المفاوضات، فقد دخلناها ونحن نعاني من تفكك داخلي وضعف على كل الأصعدة.

– أراك متشائمًا؟

– لا.. لست متشائمً،ا لكني أقرأ الواقع كما هو، لا كما أحلم به.

– والحل؟

– لم يبق لنا سوى خيار التفاوض فقط، مع أنه سيقودنا الآن إلى التنازل. لقد تنازلنا عن معظم فلسطين بدون مقابل، فماذا لو قدّمنا تنازلات جديدة وحصلنا على استقلالنا؟

أبو أحمد:

– ابني أمين أفكاره لا تختلف عن أفكار جماعة السلطة!

فرد أمين:

– لا يا والدي، لست مع السلطة ولا مع حماس، لكن الوضع الداخلي والعربي والدولي لم يعد في صالح القضية الفلسطينية.

سأل سرحان:

– معقول؟

فقال أمين:

– لعلكم تذكرون الوضع قبل (٢٥) سنة، مقارنة بسيطة باليوم ماذا ترون؟ عشرات المستوطنات المحيطة بالقدس وفي داخلها. شوارع كثيرة التفافية. أصبحت بعض المناطق السكنية اليهودية في النبي يعقوب ملاصقة للبنايات العربية. إنهم يسابقون الزمن، ونحن نتسابق في الصراع على السلطة.

(٦)

كانت إلهام تطارد من مدرسة إلى أخرى لتسجيل أبنائها، ولكنها فوجئت أن مدراء المدارس يعتذرون عن تسجيلهم لأن الوقت متأخر، فالتسجيل للمدارس يتم قبل انتهاء السنة الدراسية نفسها للعام الذي يليه.

مدارس القدس قسمان؛ قسم يتبع المنهاج الفلسطيني، وهؤلاء يشكلون المدارس الخاصة بمن فيهم المدارس التبشيرية المسيحية السابقة مثل: راهبات الوردية، وشميدت، والفرير، والتراسنطة، والثاني المدارس الرسمية التي سيطرت عليها بلدية القدس الإسرائيلية، ووزارة المعارف، منذ احتلال إسرائيل لها في العام (١٩٦٧)، وأصبحت مدارس حكومية. التعليم فيها ضعيف جدًّا حسب قول الأهالي، يجبرون الطلاب على تعلم العبرية، ولا يدرسون مادة التاريخ العربي والإسلامي، كما أن مادة الدين الإسلامي تدرس انتقائيًّا بما يخدم السياسة الإسرائيلية.

سرحان وإلهام لا يريدان تسجيل أبنائهما في مدارس تابعة لإسرائيل، ولا يريدان تسجيلهم في مدارس تدرس طلابها بالانجليزية، لذلك فوجئا بالموقف.

الوقت متأخر!

المدارس لا تتسع لكل الطلاب. مطلوب توسيع المدارس، أو إضافة مدارس جديدة.

المهم الآن عدم إضاعة الوقت.

لم يكن أمامها سوى إعادة المحاولة مرة ثانية عن طريق أحد الأساتذة العاملين في "الكلية الإبراهيمية"، والذي حاول التوسط لهما، فالتقيا مع مديرها الأستاذ نهاد أبو غربية، وشرحا له الموقف باسهاب طالبين منه تفهم الظروف، وقد ذكّره سرحان أنه كان أحد طلاب الكلية قبل ربع قرن عندما كانت في شارع صلاح الدين.

استمع الأستاذ نهاد بانتباه إليهما. كان يبدو عليه التعب، فقد أنهكته السنون، تجاوز التسعين من العمر ولا يزال على رأس عمله، رزقه الله بولد (وجدي)، لكنه توفي قبل فترة، عن عمر ٤٥ سنة، قبل أن يتزوج، وكانت وفاته صدمة لأبيه الذي كان يعتقد أنه سيترك المدرسة أمانة في يد ابنه، فإذا به يوصي أن تتحول إلى الوقف الإسلامي، وتكون تحت إشراف إدارة الأوقاف الإسلامية بالقدس بعد وفاته.

– لا بد من شكركما على جهودكما، وأثمن هذا الحرص على الأولاد، لكن المشكلة الأساس الآن كيف يمكن لحسن أو عبير الالتحاق بمدرسة تدرس بالعربية ولغتها الأساس الإنجليزية؟ فحسن بالصف التاسع الآن، وعبير بالخامس. لا يكفي أنهما يستطيعان القراءة بالعربية.

قالت له إلهام:

– لكن يا أستاذ نهاد، عليكم مساعدتنا على ذلك، فاليهود يستوعبون المهاجرين الجدد ليعلموهم العبرية من الصفر، ويلحقونهم بمدارسهم.

– يا أم حسن، إسرائيل دولة عصرية متطورة، ونحن مجرد مدرسة متواضعة، نحن لسنا وزارة.

– وماذا عن وزارة الثقافة والسلطة؟

– السلطة لديها مشاكلها الخاصة، وعاجزة عن حلها. إنها سلطة بلا صلاحيات. مجرد اسم...

– لكن المشكلة قائمة حتى في الدول العربية، فالمغتربون العائدون إلى مصر أو سوريا أو الأردن... الخ، يواجهون المشاكل نفسها مع أولادهم.

– ماذا أقول لك؟ أمة متخلفة. حكومات متخلفة. مسؤولون جهلة لا يفهمون في التعليم ولا العلم.

– وأين أولادنا من كل ذلك؟

– ما بين الضياع والتقدم.

– فكيف نرسو بهم إلى بر الأمان؟

هز رأسه:

– سأبذل جهدي لإلحاقهما في المدرسة، لكن عليكم الموافقة على إلحاقهما بصفوف أقل من مستواهما، فحسن مثلاً الذي سيكون بالصف التاسع نقبله بالسابع، وعبير بدل الخامس نقبلها بالثالث.

تدخل سرحان قائلاً:

– أستاذ نهاد، هذه جريمة بحقهما، فهما لم يرتكبا جريمة. كانا ناجحين في المدرسة. نحن الذين أعدناهم إلى القدس، سنتان في حياتهما ستشكل إحباطًا لهما.

– لكنهما لن يستطيعا فهم الدروس كلها بالعربية، لقد جربنا ذلك في الماضي وكان الطلاب يرسبون، وهذا أيضًا يشكل إحباطًا للطالب.

فقالت إلهام:

– لماذا لا نجرب يا أستاذ، فإن لم يستطيعا التقدم ورسبا فعلى الأقل يخسران سنة لا سنتين، وأنا منذ الأسبوع الأول سأتفق مع مدرس أو أكثر لإعطائهما دروسًا خصوصية في البيت حتى قبل بدء السنة الدراسية.

أكمل سرحان قائلاً:

– أنا متأكد أن السنة القادمة (أمد الله في عمرك) سترى حسن قد أنهى المدرسة بنجاح، وكذلك عبير.

ضحك وقال:

– فرخ البط عوام. البركة فيك يا سرحان، لكن قل لي: لماذا تأخرتما حتى هذا السن؟

– يا أستاذ نهاد، أشغالنا هناك، كنا مثل أي إنسان يبحث عن مصدر رزقه.

– يمكنك العمل هنا فالمحامون لديهم فرصة للعمل.

– ليس قبل استعادة بطاقة الهوية، فقد عدونا سياحًا الآن.

– هذه مشكلة جديدة خلقوها لنا، ما إن نهدأ حتى تبرز مشكلة. يريدون تهجيرنا بالقوة.

– سنظل شوكة في حلوقهم. سنصمد في هذه الأرض على الرغم من كل مضايقاتهم.

– تعجبني فيك هذه الروح، لذلك أجد نفسي مضطرًا إلى الموافقة. ليت بيدي حل كل مشاكل الناس، لكني أكاد أستطيع متابعة بعض شؤون الكلية.

قالت إلهام فرحة:

– نحن عاجزون عن الشكر. لقد قدمت لنا خدمة جليلة.

تابع سرحان كلامه:

– سنكون سندًا للمدرسين في مهمتهم حريصين على مساعدة الأولاد في حل وظائفهم.

– حسنًا.. سأحولكما الآن إلى قسم التسجيل.

كانت أول مهمة قامت بها إلهام بعد العودة من اجتماعهما مع مدير "الكلية الإبراهيمية" الاتصال مع عدد من الصديقات للبحث عن مدرسات في شتى المواد الدراسية لمساعدة حسن وعبير لفهم المواد الجديدة باللغة العربية، ومضاعفة دروسهما باللغة، وكان سرحان يساهم بقسط في هذا المجال، ويلتقي يوميًّا مع أولاده، أما بلال فقد تم إلحاقه بسهولة في قسم الروضة.

سيكون الأمر سهلاً، فبلال ليس بحاجة إلى دروس خصوصية، لكنه كان يسأل أمه: لماذا لا يوجد له مدرّسة خصوصية؟ أحيانًا كان يدخل إلى الغرفة يستمع لشرح المدرسة لعبير، ويحاول التدخل كأنه طالب مدرسة. كان دائمًا يسأل: ماذا تعني هذه الكلمة؟ ماذا تقصدين في تلك الجملة؟ وعندما كانت أمه تخرجه من غرفة المكتبة لكي تستطيع عبير أو حسن فهم الدرس كان يصرخ، ويلعن ويصر أنه يريد أن يتعلم، وأنه أشطر منهما، ولكن عندما افتتحت المدرسة أبوابها والتحق بها، لم يعد يقلق بدروسهما الخصوصية، فلديه الآن دروسه ووظائفه البيتية.

(٧)

شعر سرحان بالارتياح لتسجيل أولاده في المدرسة.

"آن الأوان لمتابعة بطاقة الهوية كي لا يتم ترحيلنا لاحقًا، فغدًا سيكبر الأولاد، وسيحتاجون إلى بطاقات رسمية وإلا واجهوا المتاعب، ولا يستطيعون الحصول عليها إلا بعد أن نستعيدها نحن!"

تنهد سرحان بأسى وهو يتساءل في قرارة نفسه: "أليس غريبًا أننا نطارد للحصول على بطاقة هوية من المحتل لنضمن العيش في بلدنا كي لا نتعرض للطرد؟!"

ذهب سرحان مبكرًا صباح الأول من آب (٢٠٠٨) إلى مكتب الداخلية في القدس. كان الجو حارًّا منذ الصباح الباكر، وعلى الرغم من وصوله الساعة السابعة صباحًا قبل فتح المكتب أبوابه بساعة، إلا أنه فوجئ بطابور المنتظرين؛ كان أطول مما توقّع: "يا إلهي.. لأول مرة أرى الطابور بهذا الطول. كان في العادة، قبل خمس وعشرين سنة، عشرين أو ثلاثين شخصًا، ولكن ليس مائة".

وقف يسأل أحد الواقفين بالطابور:

- هل هذا طابور المنتظرين إلى مكتب الداخلية؟

هز أحدهم رأسه ثم قال معلقًا:

- وهل تعتقد أنه مكتب للاجئين؟

فرد عليه سرحان:

- لكن الساعة السابعة صباحًا. منذ متى جئتم؟

ضحك أحدهم وقال:

- منذ الرابعة صباحًا، وكان أمامي حوالي خمسين شخصًا.

- يا إلهي! ومنذ متى جاء الواقف أول الطابور؟

- منذ العاشرة مساء الأمس. لقد نام أمام المكتب بعد أن أسند رأسه إلى الحائط.

هز سرحان رأسه متمتمًا: "إن كانت هذه البداية، فكيف تكون النهاية؟"

قالت له امرأة طاعنة في السن:

- اذهب يا بني وخذ دورك قبل أن يأتي أحد فيقف قبلك.

سألها:

- وهل الطابور هكذا كل يوم؟

- وأحيانًا أكثر، كأنك تأتي لأول مرة؟

هز رأسه، وذهب يقف آخر الطابور.

حـرارة الـشمس تـزداد، والباعـة المتجولـون يفرشـون بـضاعتهم للمنتظرين والمارة، فهذا يبيع الماء البارد، وآخر يبيع السكاكر، وثالث يبيع شاندويتشات... الخ، كأنه سوق عكاظ، كل يعرض بضاعته تحت أشعة الشمس الحارة.

مكتب الداخلية هو نفسه منذ ٢٥ سنة لم يتغير. ما تغير فيه طول الطابور. هذا المكتب مسؤول عن إصدار شهادات الميلاد، وبطاقات الهوية، وطلبات جمع الشمل، وتسجيل الوفيات، وتسجيل المواليد، ووثائق السفر لسكان القدس التي يسميها الإسرائيليون (لاسيه باسيه) بالفرنسية، وتعني (دعه يمر)، وتصاريح السفر إلى خارج فلسطين، الأردن، وبسبب الإجراءات العسكرية الكثيرة على المسافرين فقد ازداد عدد المراجعين، وعلى الرغم من زيادة عدد السكان، فلا يزال المكتب كما هو بنفس عدد كراسيه وموظفيه، ناهيك عن سياسة سحب البطاقات، وإلغاء حق المواطنة لمن يسافر لمدة طويلة (سنة أو أكثر)، أو القاطنين خارج حدود القدس حسب التقسيم الإسرائيلي لها، كل هؤلاء أضافوا حملاً جديدًا إلى مكتب الداخلية، فازداد عدد المراجعين كل يوم، وزادت إجراءات المكتب التعقيدية، فصار الحراس اليهود يستغلون تذمر المواطنين ويبيعون مواقع الصفوف الأولى للمنتظرين لمن يدفع لهم.

قبل افتتاح المكتب بخمس دقائق لاحظ سرحان دخول بعض المراجعين في أول الطابور وخروج بعض المنتظرين كأنهم يستبدلون الأماكن، فصاح سرحان متذمرًا:

- ما هذه الفوضى؟ أين الدور؟

قال له أحد الواقفين بجانبه:

- كأنك لم تر هذا من قبل؟

فسأله سرحان:

- ما الذي يحدث؟

- هؤلاء يشترون الدور من الواقفين منذ مساء الأمس. بعض الشباب الذين يقفون بالطابور منذ الأمس مجرد عمال عاطلين عن العمل، ينامون أمام المكتب، وفي الصباح يبيعون مكانهم لمن لا يرغب بالانتظار تحت هذه الشمس الحارقة مقابل مبلغ، ويعيدون الكرة كل يوم.

فرد عليه مواطن أمامه:

- قصدك تقول يبيع مكانه للقادرين على الدفع.

سأل سرحان:

- وكم يدفعون يا ترى؟

- أحيانًا مائة شيكل (٢٥ دولارًا)، وأحيانًا مائة دولار. كل زبون وله سعره، وكل مكان وله سعره أيضًا؛ فالواقف أول الطابور ليس كالواقف

بعده بعشرين دورًا، كما أن الوقت يلعب دورًا في الأسعار، فعندما يأتي المواطن ليشتري الدور الساعة السادسة صباحًا سيدفع أقل فيما لو جاء الساعة الثامنة عندما يكون الطابور أطول.

– وماذا يفعل الحراس اليهود؟

ضحك من حوله...

– الحراس اليهود؟ سيفرحون لمشاكلنا. إنهم ساديون، وهم يبيعون الأماكن بسعر أعلى. انتظر وسترى.

– ولماذا أنتم ساكتون؟

تدخّل أحد الشباب الذي كان يستمع لحديثهم:

– يا عمي يبدو أنك فاضي أشغال. يا صبّاح.. يا فتّاح! ماذا تريدنا أن نفعل؟ أنضربهم؟ يبدو أنك قادم من بلاد الخواجات. من أين حضرتك؟

استغرب سرحان حديثه، فماذا يفعل بهؤلاء الشباب غير المهذبين. رد عليه بهدوء:

– أنا عائد من أمريكا، لكن من القدس.

– أعرف أنك من القدس، ولو كنت من الخليل لما استطعت أن تقف هنا، لكنك تركتها وتركت مشاكلها، فلماذا عدت إليها؟

– كنت أتوقع أن تشجعني على العودة.

رد عليه أحد الواقفين خلفه من كبار السن:

– القدس ترحب بعودتك إليها، لقد فعلت الصواب.

فعلق آخر قائلاً:

– قصد الشاب هناك أن يقول لك: لقد ارتحت من الانتظار في الطابور وملاحقات الجيش والشرطة، فلماذا عدت؟ ليتني مكانك، فأنت لم تر شيئًا بعد؛ البطالة والسرقات، والوضع الأمني المنفلت، وعصابات مخدرات.

في الماضي كنا نتصل بالشرطة الإسرائيلية إذا وقعت جريمة فيحضرون، لكنهم اليوم يقولون لنا: اذهبوا إلى السلطة، وهم يعرفون أنهم يمنعون قوات السلطة من دخول القدس.

– أإلى هذا الحد وصلت الأمور؟

– هذا قليل من كثير. القدس قبل عشرين سنة تختلف عن القدس اليوم. الناس تغيروا.

– أيتغيرون إلى الأسوأ؟

علق أحد الشباب:

– علينا الصبر. نحن نمر بفترة عصيبة، إما الصبر وإما الهزيمة.

قالت امرأة تلبس الحجاب تقف مع ابنها الطفل بعد أن سمعت كلمة الهزيمة:

– هزيمة؟ كل هذا ولم نهزم؟ نحن نهزم كل يوم ألف مرة. يسلبون أرضنا، يقتلوننا، ينغصون علينا حياتنا، يقيمون الجدار، يعتقلون أبناءنا، يبنون مستوطناتهم على أرضنا... أبعد هذا ندعي أننا لم نهزم؟

صمت قليلاً، فاخترق أذنيه حوار يدور بين بعض الشباب الواقفين أمامه في الطابور على بعد عدة أمتار:

– شكله خالص كازه، كأنه يسألنا: لماذا ساكتون؟ بسيطة فليتفضل حضرته ويرينا ماذا سيفعل لنفعل مثله.

رد آخر:

– يا جماعة، دعوا الرجل بحاله، الله يساعده، راجع متحمس. غدًا يفتر حماسه، فيهرب من هنا، ويلعن أبو القدس.

علق ثالث:

– ما دام عائدًا من أمريكا، فلماذا يقف بالدور؟ لماذا لا يشتري دورًا ويكون في أول الطابور؟ يبدو أنه بخيل.

فرد الأول عليهما:

– أنا مستعد أن أبيعه دوري بعشرة دولارات. ها ها ها.

فقال رابع:

– هذا ثور أمريكي لا يُحلب...

ها ها ها.. ضحكوا جميعهم.

امرأة تقف بجانبهم قالت لهم:

- يا خالتي.. يا حبايبي، والله عيب عليكم. الرجل عائد إلى وطنه من الغربة اتركوه بمصائبه. الله يكون بعونه. لا تتركوا اليهود يسخرون منا. يكفي ما يفعلونه بنا.

قال أحدهم معلقًا على كلامها:

- عندك حق يا خالة، حقك علينا.

ثم استدار إليهم قائلاً:

- خلص يا شباب.. كفى.

نظر إلى ساعته. كانت الثامنة إلا دقيقة. وقف أحد الحراس اليهود يحمل بندقيته من نوع (إم ١٦)، وبدأ ينادي بعض المواطنين العرب الذين كانوا يقفون خارج الطابور، لم يحضروا إلا قبل قليل. دقق في بطاقاتهم، وأدخلهم فورًا كأول المراجعين.

سأل سرحان الواقف إلى جانبه:

- كيف يشتري هؤلاء المراجعين الدور؟

فقال له:

- من المكتب هناك. (أشار له بيده إلى مكتب صغير يقع بجانب مكتب الداخلية) مكتب خدمات، كل عمله تعبئة طلبات المواطنين بالعبرية الخاصة بالمعاملات مقابل بعض الفلوس، كما يعملون على

تصوير المواطنين الذين بحاجة إلى صور لمعاملاتهم.. في هذا المكتب تسأل الموظف هناك عن طريقة الدخول بسرعة لأنك مستعجل، فإن ارتاح لك يعرض عليك شراء دور وهو يقوم بالتنسيق مع الحراس حيث يتقاسمون الرشوة. كلهم لصوص ونحن الضحايا. لماذا لا تشتري الدور؟ ادفع مائة دولار وأرح نفسك.

ضحك سرحان:

- كيف أكون محاميًا وأقوم بدور الراشي؟

فتح الحراس الباب، وبعد إدخال حوالي ثلاثين مواطنًا، أغلقوه حتى ينهي من دخلوا معاملاتهم، فالمكتب لا يتسع لأكثر من ذلك.

الساعة العاشرة صباحًا. سرحان يتصبب عرقًا. ثلاث ساعات وهو بانتظار دوره. لا يزال أمامه الكثير من المواطنين، كل منهم يتذمر ويلعن إسرائيل واليهود والحراس. لم يتعود في أمريكا على ذلك، فإصدار شهادة ميلاد يمكن أن يتم عبر الشبكة العنكبوتية، وإصدار جواز سفر قد يحتاج تقديم الطلب لعشر دقائق، وإن كان لا بد من الانتظار كما في بعض الدوائر ففي مكتب مريح وليس في الشمس الحارقة. خمس علب ماء بارد اشترى حتى الآن لا يدري لماذا لم يشتر دور أحد الواقفين بالصف الأول، لعله رآها مجحفة بحقه؛ محام يدفع الرشوة! هل عاد ليكون كالآخرين، أم ليكون مثالاً لهم؟

القدوة عليه دائمًا أن يدفع ثمن مبادئه وأخلاقه، كذلك الفلاسفة والحكماء، لم يأخذ الناس بأقوالهم، لكن بأفعالهم، فعندما ضربوا المثل بالسموأل كان قد قدم ابنه قربانًا لوفائه.

من المسؤول عن الرشوة؟ الحراس أم المواطنون؟ الراشي أم المرتشي؟ أم الساكت عن الجريمة وهي تمارس أمام عينيه كل صباح؟ ولكن ما ذنب هذا المواطن الذي يتعب منتظرًا دوره؟ أليس الاحتلال سبب كل تلك المصائب؟ لماذا يحاولون ترحيل الناس عن مدينتهم؟ لماذا على المواطن أن يراجع عدة مرات لإنجاز معاملته؟

سأله الواقف بجانبه:

- لماذا أنت هنا؟

- لأسجل الأولاد ببطاقة الهوية.

- وهل طلبك جاهز؟

- تقصد النموذج؟ لا طبعًا، فأنا هنا للمراجعة لاستفسر، لأرى ما المطلوب، ما ردهم.

- لا تغلب نفسك فلن يوافقوا، فأنا أسكن في ضاحية البريد (من ضواحي القدس) وعدّوني خارج البلد، وألغوا بطاقتي.

- يا إلهي.. أليست ضاحية البريد من حدود القدس؟

– كانت. الله يرحم ما كان. كانت ضاحية البريد حتى بيت آل صندوقة تابعة لبلدية القدس حسب مفهومهم، حتى أن سيارة النفايات التابعة لبلدية القدس كانت تجمع النفايات من هناك. لكن بعد عودة السلطة، وعندما ازداد عدد سكانها العرب قاموا بتعديل الخريطة، ففصلوها عن حدود القدس، وعدوها تابعة لمنطقة رام الله، مع أن مستوطنة "نيفي يعقوب" بجانبها تمامًا، وأقيمت على حدودها وسلبت بعض أراضيها، وتوقفت البلدية حتى عن جمع النفايات، وأسقطوا بطاقاتهم المقدسية.

– قريبًا سيعدون كل عربي بأنه غير مقدسي أينما سكن.

– يريدون تهويد القدس بالقوة.

– عندما عدت ختموا جوازات سفرنا بأننا سيّاح. أنا ابن البلد سائح، أما "الفلاشا" الأثيوبيون في إسرائيل فهم أبناء البلد! أليس هذا الظلم بعينه؟

صمت ثم قال:

– ولماذا تراجع إذًا؟

– لقد غيرت مكان سكني، وأطارد لاستعادة بطاقة الهوية، وما زالوا منذ عامين يرفضون الطلب، وكل مرة يطلبون من أجل التعجيز أوراقًا جديدة.

- كأنك تسكن بالتهريب.

- هكذا يشعروننا.

- لكن إياك أن تعطيهم بطاقة الهوية فلن يعيدوها لك. صحيح أنها ملغاة عندهم، لكنها تفيدك عندما يوقفك حاجز للجيش، أو دورية للشرطة، وإلا ستواجه مشاكل كثيرة، إياك أن تصدق ريما.

- من ريما هذه؟

- مسؤولة المكتب.

- هل هذا اسم يهودية؟

- لا إنها عربية، وتعمل هنا منذ ما يقارب الثلاثين سنة. لقد خدمتهم أكثر من أن تكون يهودية، فهي تحاول دائمًا الإيقاع بالمواطنين العرب، لتسحب منهم بطاقات الهوية. يقال- والله أعلم- أنها تتقاضى مبلغًا عن كل بطاقة تستردها أو تلغيها.

- يا ألطاف الله.. ما هذه الحقارة؟ وكيف يسمح لها أهلها بذلك؟

- أهلها غير مبالين. يعتقدون أن ابنتهم تعمل موظفة. لا.. إنها ليست موظفة، وإلا لما كانت مديرة المكتب. سمعنا أنها كانت من حزب الليكود وتحمل الجنسية الإسرائيلية.

الساعة الحادية عشرة والنصف. اقترب سرحان من الباب الرئيس. لا يقفلون الباب ولا يسمحون لأحد بالدخول إلا بالواسطة، في حين يبقى

المكتب في الطابق الثاني مفتوحًا حتى الساعة الثانية لإنجاز معاملات المنتظرين في الداخل.

رأس سرحان بدأ يؤلمه، فقد أتعبته أشعة شمس آب اللّهاب. شعر بجوع. ليته تناول طعام الفطور قبل حضوره. هل يشتري شيئًا من هؤلاء الباعة؟ لكنهم يبيعون طعامًا غير نظيف، وأيديهم متسخة، ولا ماء للنظافة، ولا ثلاجات! كيف يبيعون الأكل في هذا الطقس الحارق؟ ولماذا يقبل الناس على شرائه؟ ألديهم بديل آخر؟ البديل هو البقالة الواقعة هناك، لكن من يجرؤ على الخروج من الطابور، فقد لا يعود إلى مكانه.

- لا.. لن آكل. سأتحمل الجوع حتى عودتي إلى للبيت.

استغل الفرصة واتصل بالبيت عبر هاتفه الخلوي:

- ألو.. إلهام كيف الحال؟

- نحن بخير. ماذا حصل معك؟

- لا أزال أنتظر دوري. أشعة الشمس تكاد تهلكني.

- سلامتك يا حبيبي. أنا أعد لك غذاء شهيًّا. لا تأكل خارج البيت.

- حتى لو كنت جائعًا؟

- سأطعمك بيدي وأسد جوعك.

- ماذا تطبخين؟

- سأبقيه سرًّا حتى تعود بسرعة.

– سأعود فور انتهائي. إلى اللقاء.

الساعة الثانية عشر ظهرًا. فتح الحارس الباب وأدخلوا الفوج الأخير من المراجعين. كان سرحان أحدهم، وطلبوا ممن تبقى الانصراف والعودة في اليوم التالي.

هكذا بعد انتظار دام أكثر من أربع ساعات يعود بعض الناس من حيث أتوا، لا يعرفون إن كان سيحالفهم الحظ غدًا أم سيعودون خائبين من جديد.

يجلس سرحان على أحد المقاعد ينتظر دوره. عدة شبابيك للمراجعين كل شباك متخصص في قضية محددة، وشباك ريما الوحيد المتخصص في قضايا بطاقات الهوية. طبعًا أحالوا أبرز قضية لها. تركوها تنفذ أوامرهم وتصادر بطاقات الهوية للمواطنين العرب، ليصبّوا جام غضبهم عليها.

فجأة سمع صياح أحد المراجعين على شباك ريما يقول لها:

– حرام عليك يا ريما، حرام! أنا أعيش في الرام منذ ثلاثين سنة، فكيف تلغون حقي في الإقامة بالقدس، أين سأعمل؟ أين سأعيش؟

– قالت له ببرودة أعصاب:

– اذهب إلى رام الله.

– ولكني من القدس، ولدت فيها أبًا عن جد...

لم تدعه يكمل. قالت له:

- اسمع.. أنا هنا أطبق القانون.

ضحك وقال لها:

- قانون؟ قانون تفريغ القدس من سكانها العرب؟

- إما أن تخرج، أو سأنادي على الحارس ليطردك بالقوة.

- طبعًا تحتمي باليهود، والله إنهم أفضل منك.

غضبت. وقفت وخرجت من مكتبها الصغير بعد أن ضغطت على زر الحارس، فصعد إليها أحد الحراس ببندقيته الطويلة. قالت له:

- اطرد هذا من هنا، وإن عاد فلا تدخله.

على الفور أمسك الحارس المواطن المسكين من قميصه وسحبه إلى الدرج وطلب منه المغادرة فورًا، فنزل المطرود على الدرج لاعنًا، وشاتمًا.

كان سرحان أمام هذا المنظر يتساءل: "أين السلام الذي يبحثون عنه؟ إنهم يزدادون شراسة حتى في ظل الحديث عن السلام."

صمت ثم تابع يتمتم: "صحتين. القوه لهم، والغلبة لهم. نحن مشتتون، نتصارع فيما بيننا، هزمنا أمامهم أكثر من مرة، فهل ستتابع الهزائم؟ أم هل سيصحو السكران من غفوته؟ معركتنا معهم طويلة، وأهمها معركة القدس، إنها المعركة الأصعب، ومَن يحسمها لصالحه سيكسب المعركة. إنهم يعدون لها بكل مهارة وتخطيط، ونحن ليس لنا خطط في مواجهتها. ننتظر من الله أن يحمينا وأن يقينا شرّهم، وأن ينصرنا

عليهم، دون أن نعد حتى للحظة النصر. أليس النصر بحاجة إلى إعداد جيد حتى بعد هزيمة الطرف الآخر؟ كثيرون انتصروا على أعدائهم، لكنهم فشلوا في استثمار النصر، فخسروا كل شيء.

في مكتب الداخلية يستطيع المواطن أن يتلمس كل مآسي أبناء القدس، ويقرأ في عيونهم وهمساتهم معاناتهم وآلامهم التي يبدو أنهم تعودوا عليها حتى أصبحت ظاهرة استسلموا لها.

كلهم تعودوا على صراخ ريما، تلك المرأة قصيرة القامة التي لم تتزوج بعد ربما لأنها مكروهة من الناس، ولأنها أصبحت جزءًا من الاحتلال، إضافة إلى شكلها الخارجي فهي قبيحة، لا يعرف الجمال طريقًا لها. من يراها يعرف سرّ حقدها على أبناء شعبها، أما صوتها، فهو أشبه بالغراب الناعق، كل المراجعين يخافونها، فهي صاحبة السلطة هنا، والمدير اليهودي القابع في المكاتب الداخلية يحرص على إعطائها هذا الشعور بالقوة والغطرسة لتنفذ سياسة الحكومة الإسرائيلية بحزم، وحتى يصب المواطنون العرب جام غضبهم عليها وحدها مع أنها تنفذ سياستهم لا أكثر، وكما يقول المثل الفلسطيني فقد جعلوها فوهة مدفع لهم، وقد أجادت المهمة التي أوكلت إليها، فضربوا عصفورين بحجر واحد.

اقترب مواطن فلسطيني يحمل الجنسية البريطانية يطلب تمديد الفيزا لشهر آخر.

أخذت جواز سفره. غابت في المكتب الداخلي ثم عادت لتقول له:

– آسفة.. المدير رفض الطلب. عليك مغادرة البلاد خلال أسبوع.

أعادت له جواز سفره، فحمله محتارًا ماذا يفعل.

نادت على المراجع الأخير لها. كان سرحان آخر شخص ينتظر دوره على شباكها.

سألته:

– أين طلبك؟

– ليس لدي طلب. جئت أستفسر في البداية عن المطلوب.

قبل أن يكمل قاطعته قائلة:

– رقم بطاقتك؟

– قدم لها الرقم مكتوبًا على الورقة، فأدخلته في الحاسوب ثم سألته:

– أين البطاقة.

– ضاعت من سنوات.

– هل أنت سرحان. خ؟

– نعم.

– جواز سفرك؟

قدم لها جواز السفر الأمريكي. تأكدت من اسمه، ثم قالت له:

– بطاقتك ملغاة؛ لقد عشت خارج القدس معظم الوقت، مركز عملك وحياتك خارج القدس لذلك فقدت حق الإقامة فيها. أنت الآن سائح هنا. بعد انتهاء مدة زيارتك عليك مغادرة البلد.

– سيدة ريما...

– آنسة إذا سمحت.

– آنسة ريما.. أنا مواطن مقدسي منذ آلاف السنين، واحتلت إسرائيل القدس وأنا فيها، فكيف أصبح غير مواطن؟ بأي قانون هذا؟

– حسب القانون الإسرائيلي.

قدم لها، بطاقة المحاماة، وقال لها إنه محام في أمريكا ويرغب بمقابلة مدير المكتب حول هذا الوضع، فقالت له:

– مدير المكتب ليس لديه الوقت لمقابلة الناس.

– يا ست ريما أنا مواطن لم يتنازل علن بطاقته وحقه في بلده، فكيف تشطبونني بجرة قلم؟ لا يوجد قانون دولي ولا عالمي ولا أي دولة في العالم تحرم الإنسان من بلده، حتى قانون جنوب أفريقيا السابق العنصري لم يمارس ذلك.

– سيد سرحان، كل هذا لن يفيدك.

– أرجوك أن تطلبي المدير أريد مقابلته. قدمي له هذه البطاقة. قولي له إن المحامي سرحان. خ يرغب في مقابلته.

وقفت، ثم توجهت إلى المكتب الداخلي. بعد دقائق عادت تعلمه موافقة المدير على استقباله. اصطحبته إلى الغرف الداخلية. كان المدير يجلس بغرفة كبير وراء مكتبه، يلبس على رأسه "الكوفع" (طاقية اليهود الدينية)، وخلفه صور ثيودور هرتسل مؤسس الصهيونية الحديثة، وبن غوريون رئيس إسرائيل الأول، وصورة رئيس الوزراء.

كان المكتب مليئًا بالملفات هنا وهناك. جهاز حاسوب مع شاشة كبيرة. جهاز هاتف. آلة تصوير. آلة طابعة. قبل أن يبدأ الحديث، بادره المدير بالقول:

– سيد سرحان. خ. لقد غادرت القدس في العام (١٩٨٠)، ومنذ ذلك اليوم حتى اليوم جئت إلى القدس في العام (١٩٩٠) لمدة شهر. معظم الوقت أنت خارج القدس، يعني مركز حياتك خارج القدس، لذلك فقدت حق المواطنة.

– ومنذ متى يفقد مواطن حق الإقامة في وطنه لأنه يعيش خارجه؟

– أنت حسب القانون الإسرائيلي مقيم في القدس، ولست مواطنًا لأنك لا تحمل الجنسية الإسرائيلية.

– ولكني مواطن حتى قبل احتلالكم للقدس، وفرضتم علينا البطاقة الزرقاء كمواطنين، فكيف الآن تسحبونها؟

– سيد سرحان.. لقد علمت أنك محامٍ، ولا أشك في قدرتك على الدفاع عن نفسك، لكني لست مسؤولا عن التشريع. أنا هنا أنفذ القرارات فقط. إن كان لك رأي بالقانون فيمكنك التوجه إلى اللجنة القانونية بالكنيست.

– لكنها ليست قوانين. إنها إجراءات عسكرية. هل تطبقون الشيء نفسه على اليهود؟

– لا طبعًا، فهؤلاء مواطنون. لو كنت تحمل الجنسية الإسرائيلية لما منعك أحد.

– ولكن هذا وضع سياسي، والقدس مثار نزاع، وسكانها الذين كانوا فيها على الأقل مواطنون باعترافكم، فلماذا بدأتم تغيرون الإجراءات بحقهم منذ اتفاق أوسلو؟

– مرة أخرى.. هذا خارج اختصاصنا.

– وهل هذه الممارسات تشير إلى نيتكم في السلام؟

– نحن حريصون على السلام. انظر إلى ما حصل مع مصر والأردن.

– تدعون السلام مع الدول العربية لأن فلسطين هي هدفكم. لم تكتفوا بالأرض، ولكنكم تريدون طردنا.

– أنصحك إن رغبت بشيء أن تراجع محاميًا لعله يفيدك في اقتراح مناسب، لكن أحب أن أعلمك أن مدة "الفيزا" ثلاثة شهور ستنتهي في

أواخر أيلول القادم، فإن لم تغادر سيتم ترحيلك من قبل الشرطة، وحينها لن يسمحوا لك مستقبلاً بالعودة للزيارة، فلا ترتكب هذا الخطأ؟

هز سرحان رأسه ثم سأله:

- هل هذا قراركم الأخير؟

- نأسف أننا لا نستطيع مساعدتك.

غادر سرحان المكتب غاضبًا. بعد سبع ساعات لم يحصل على شيء. العنصرية تطغى على قراراتهم العسكرية التي يسمونها قوانين.

تمتم سرحان:

"بأي دين؟ بأي حق؟ بأي قانون دولي، إنساني، حيواني يحرمون مواطنًا من وطنه؟ ما الفرق بين ما يحصل اليوم وما حصل في العام (١٩٤٨)؟ لعله فرق واحد؛ اليوم يطردوننا واحدًا واحدًا وفي عام النكبة طردونا بالجملة. إنه المنطق القديم نفسه؛ منطق القوة والبلطجة، لكنهم ألبسوه ثوبًا قانونيًّا على هواهم."

في الطريق إلى شارع صلاح الدين، حيث السيارات المتجهة إلى شعفاط، بدأ يشعر بالجوع.

التقى قرب فندق "سان جورج" بالمواطن الذي كان يراجع قبله في مكتب الداخلية. سأله عما حصل معه بعد أن تعرف إليه، فقال له:

– أنا تحسين المغربي، من سكان القدس، ومنذ خمس عشرة سنة من سكان بريطانيا، فوجئت عندما عدت أنهم يعدونني سائحًا، وألغوا حق المواطنة لي، كما حصل معك ربما.

– أنا سرحان. خ، من سكان شيكاغو قديمًا وحصل معي مثلك، لكنني قررت البقاء وعدم السفر .

– وماذا لو قاموا بترحيلك بالقوة؟

– أفضل من الترحيل اختياريًا.

– ولكنك حينها ستخسر حتى إمكانية الزيارة.

– صحيح، لكنها تشعرهم أننا لم نرضخ لقراراتهم.

– ليتني أستطيع أن أفعل مثلك.

صمت قليلاً ثم قال:

– هل لاحظت التي تدعى ريما؟ كم كانت وقحة! إنها أسوأ من اليهود. لقد قالت لي وهي تتلوى مثل الأفعى: أنت بريطاني. هل تعرف ماذا قلت لها؟ خذي جواز السفر البريطاني أنا لا أريد الجنسية البريطانية. فوجئت بقراري، فدخلت إلى مكتب المدير وعادت تقول لي: حتى لو تنازلت عن الجنسية البريطانية، فقد فقدت حقك في الإقامة في القدس. فقلت لها: ولماذا تسمحون لليهود بالعودة متى شاؤوا؟ فردّت علي: إنهم

يحملون الجنسية الإسرائيلية. قلت لها: حسنًا أنا موافق. أعطني الجنسية الإسرائيلية. المهم أن أبقى في بلدي.

- حسنًا، فماذا قالت لك؟

- كان عليك أن تقدم طلبًا للحصول عليها سابقًا. اليوم لا نستقبل طلبات للتجنيس.

- إنهم يطردوننا بصمت، دون أن ينتبه لنا أحد، أو يسمع بنا.

- يا أخ سرحان.. العالم العربي كله، وعلى رأسها بلدكم أمريكا، عندما يتعلق الأمر بممارسات إسرائيل فهم يغلقون آذانهم عن سماع الشكاوى. هم يسمعونها فقط عندما تتعلق بنا.

- أخشى أن يأتي يوم نصبح فيه كلنا لاجئين.

(٨)

وافق سرحان على دعوة أحد أصدقائه القدامى للمشاركة في حفل عشاء يقيمه أحد رجال الأعمال الفلسطينيين في بيته في رام الله على شرف أعضاء من السلطة الفلسطينية. رآها سرحان فرصة لطرح قضيته وقضية سكان القدس المقيمين خارجها، والذين تقوم السلطات الإسرائيلية بترحيلهم، وهي فرصة للتعارف بعد هذا الغياب الطويل، كما قال له صديقه بهاء. ح.

كانت الدعوة عائلية فاصطحب معه إلهام، وترك أولاده لدى بيت جدهم تلك الليلة. وصل سرحان إلى بيت رجل الأعمال حسام الريماوي حسب وصف بهاء للموقع. كان يقع على رأس جبل في مدخل المدينة؛ قصر جميل يحيط به سور من الرخام، ويتميز بأن سقفه من القرميد الأحمر. كانت حديقته جميلة مليئة بالأزهار المختلفة. من يرى القصر، يعتقد أنه في باريس، وليس في عاصمة الانتفاضة.

قال لزوجته إلهام:

- إنه قصر جميل، لم أر مثله حتى في أمريكا.

- يبدو أنه من أغنياء رام الله.

- طبعًا، أليس من المحسوبين على السلطة. لقد كان قبل فترة وزيرًا في إحدى الوزارات.

- من يدري لربما تصبح وزيرًا!

- أنا؟ صعب يا إلهام؛ العيش مع رجال السياسة ليس سهلاً كما تتوقعين.

نزل سرحان وزوجته من السيارة باتجاه البيت. كان في استقبالهما بعض العاملين، وفي مدخل القصر بالداخل رحب بهما حسام بعد أن عرّفه بهاء الذي وصل مبكرا بهما:

- سرحان. خ، محام من أمريكا والسيدة إلهام زوجته.

ابتسم حسام. سلم عليهما:

- شرفتمونا.

أهل أمريكا دائمًا لهم الصدارة.

سلم سرحان وزوجته على بعض المدعوين الذين كان بهاء يعرّفه بهم.

- باسل، مسوؤل المخابرات.

- سناء، سكرتيرة مكتب المخابرات.

- أمل، سكرتيرة مكتب الأمن الوقائي.

سلم سرحان عليهم، فيما كان الآخرون منشغلين بأحاديث جانبية، وجلس مع زوجته في أحد الأماكن التي اختارها.

لفت انتباه سرحان وزوجته صورة الرئيس الشهيد ياسر عرفات في القصر، صورة كبيرة وبجانبها صورة لحسام مع عرفات.

بعد فترة قصيرة انشغل فيها سرحان مع بهاء وبعض الحضور بأصول التعارف والضيافة، أعلن راعي البيت عن بدء حفل العشاء ودعا الجميع للانتقال إلى القاعة المجاورة.

كانت قاعة واسعة نسبيًّا، الأكل جاهز في الوسط، والخدم بانتظار أية طلبات جديدة. لحوم، دجاج، أرز، خضار، سلطات، معجنات... لم يبق شيء يحتاجه أحد.

بدأ الجميع بعد أن أعلن مسؤول الأمن الوقائي افتتاح العشاء. كانوا خلال تناول الأكل يتسامرون ويتحاورون بأمور العمل.

فجأة سأل مسؤول المخابرات:

- لقد عطشنا يا حسام! أين المشروب؟

- أنا منتظر الأوامر.

حرّك يده، فتقدم بعض الخدم، وفتحوا زجاجات الوسكي والفودكا، وبدؤوا بتوزيع المشروب لكل منهم حسب طلبه. كان سرحان وزوجته

وأحد الحضور مع زوجته لا يشربون الخمر فأثار ذلك استغراب مسؤول الأمن الوقائي، فقال مازحًا:

- ما لي أرى الأخ سرحان لا يشرب؟ معقول؟ من أمريكا ولا يشرب؟! يبدو أنه من حماس.

ها ها ها...

ضحك بعض الموجودين، فرد بهاء نيابة عنه قائلاً:

- المحامي سرحان لا يشرب الخمر ولا البيرة أيضًا...

- وماذا عن الست إلهام؟ أراها مثله.

- إذا كان الناس على دين ملوكهم، فنساؤنا على دين أزواجهن... ها ها.

- يا بهاء.. أنت ماهر في اختيار الكلمات.

رفع يده مع الكأس وقال لهم جميعًا:

- في صحة الجميع.

وانهمكوا في تناول العشاء.

انتهى العشاء فعاد الجميع إلى قاعة الجلوس الأولى يحملون كؤوسهم. مال بهاء إلى سرحان وسأله:

- أرجو أن تكون مرتاحًا.

هز سرحان رأسه، ثم سأله:

- هل أمل زوجه مسؤول الأمن الوقائي؟

- لا.. لماذا؟

- رأيته يسرق منها بعض القبلات.

- إنها صديقته، يعني مثل أمريكا عندكم (جيرل فرند).

ابتسم سرحان وضحك.

لم ترق الجلسة كثيرًا لإلهام، فقد رأت في نساء الحفلة كأنهن من خارج فلسطين، لا يحملن جذورها ولا عبقها. كأنهن غريبات عنها، وهي غريبة عنهن، لذلك كانت تقضي معظم الوقت تسامر زوجة بهاء، الذي كان يحاول دمج سرحان برجال الأعمال البارزين، فهي فرصته ليكون محاميًا ناجحًا في الوسط الفلسطيني.

خلال انهماكهما في الحديث فجأة وجّه مسؤول المخابرات سؤاله إلى سرحان:

- خبّرنا يا أخ سرحان، كيف الوضع في أمريكا؟

نظر إليه سرحان، حيث كان مسؤول المخابرات يحمل الكأس بيده اليمنى، بينما يده اليسرى تحيط بسكرتيرته سناء الجالسة بجانبه، شعرها الطويل يسترسل على كتفيها، وعيونها واسعة، وأنفها صغير، ونهداها بارزان يكادان يقفزان من الداخل، ونصفهما بارزان بشكل ملفت للنظر، وممتلئة بعض الشيء، وجميلة، ونظراتها مغرية.

حاول سرحان ألا يلقي نظراته إليها لئلا يثير المخابرات عليه، ثم قال له:

– ما الذي تريد أن تعرفه عن أمريكا؟ أخبار الجالية الفلسطينية، أم العربية، أم الساسة، أم حال الناس هناك، أم الوضع الاقتصادي...؟

قاطعه باسل قائلاً

– ألديكم فتيات حلوات مثل سناء؟

(ما هذا السؤال؟ يبدو أنه يريده أن يعلق معها) قال له مبتسمًا:

– بجمالها؟ ربما رأيت، لكن (صمت للحظة ثم تابع) بخفة دمها لم أر بعد.

ضحك الجميع بينما قال أحد الحضور رافعًا كأسه:

– بصحة سناء .

أما إلهام فقد لكزته بكوعها. همست بأذنه بعدما انشغل الجميع عنهما بسناء. قالت له متوعدة:

– بخفة دمها لم تر أحدًا؟

فقال لها هامسًا:

– مجاملات يا إلهام.

ابتسمت سناء كأنه بجوابه أرضى غرورها، فأرسلت إلى سرحان قبلة في الهواء.

علق مسؤول الأمن الوقائي قائلاً:

- أووه.. إن كانت القبلات بدأت تنهال على سرحان الآن فلا ندري ماذا في المرة القادمة؟

- فقال بهاء مازحًا:

- سيأتي هو إليها طائرًا.. ها ها ها.

ضحك الجميع. احمرّ وجه إلهام.

فقال أحد العاملين في الشرطة وقد لاحظ ذلك:

- إذا كانت إلهام لا تسمح له بالطيران سنطير مكانه.. ها ها ها.

فقالت إلهام مجاملة للحضور:

- أينما يطير، خيطه مربوط بكفي أسحبه متى شئت.

ضحك سرحان.

- أعترف أن جناحيّ بدونها لا يستطيعان الطيران.

تصفيق من الحاضرين.

فقالت زوجة حسام مشاركةً في الجدال وموجهةً كلامها للجميع من الرجال:

-أينما تذهبون ستعودون إلينا.

فجأة انتقل حسام الريماوي لحديث الاقتصاد، فسأل:

- ما آخر أخبار المشاريع الاقتصادية؟

فقال مسؤول الأمن الوقائي:

- الأخبار كلها لدى باسل فكل الأسرار عنده، أليس مخابرات؟ ها ها ها.

رد باسل قائلاً:

- وافقت إسرائيل على السماح باستيراد بعض السلع، وهناك أخبار تشير إلى نية الحكومة الأمريكية تقديم خمسمائة مليون دولار، شرط وقف الانتفاضة.

علق أحد الحضور:

- هذه المشاغبات التي تسمونها انتفاضة أضرتنا ولم تفد بشيء أبدًا.

فرد عليهما حسام:

- أنا أسأل بشكل واضح عن صفقة الهواتف الخلوية الموجودة في عمان متى سيسمحون بإدخالها؟

قال له باسل:

- لا تقلق.. سندخلها لك بطريقتنا، لكن ما العمولة؟

- عشرون بالمائة.

فقال باسل ساخرًا:

- كونك دعوتنا إلى هذا العشاء لا يعني أن تبتلع عمولتنا. لا. ستزعل سناء.

- كل شيء إلا زعل سناء. ما رأيك بأربعين بالمائة؟

- لعيون سناء قبلتُ مع أنني لا أقبل سوى المناصفة، إن كنتم إخوة فتقاسموا.. ها ها ها.

- ومتى سنستلم البضاعة؟

- عندما تدفع العمولة.

- ألا تصدقني؟

- ولو يا حسام أنت ثقة، لكن مصاريف الاتصالات والتحركات. نحن لسنا رجال أعمال مثلكم. تكاد رواتبنا تكفينا.

فقال مسؤول الأمن الوقائي:

- صحيح.. خليهم يصرفوا.

أحد العاملين في الشرطة قال:

- إذا كان الكبار يشكون من رواتبهم، فكيف نحن الصغار؟

فقال حسام:

- غدًا يتم الدفع.

كان حسام يعرف باسل جيدًا، فشعاره دائمًا (نحن في خدمتكم ما دمتم تدفعون)، لكنه يحاول دائمًا التهرب من ذلك دون فائدة، فمسؤول المخابرات لا هم له سوى القبض، فبغير هذه الطريقة لا يستطيع السيطرة على الجهاز، فكل المسؤولين لديه يقبضون منه غير رواتبهم ليضمن

ولاءهم له، وتنفيذهم لقراراته، وإغلاق عيونهم عن أية أعمال مشبوهة عملاً بالمثل الشعبي القائل (أطعم الفم تستح العين).

في أحد المرات قال باسل لحسام في مكتبه:

- اسمع يا حسام.. أنتم تقبضون الملايين ونحن الملاليم.

فرد عليه حسام:

- ولكننا ندفع لكم الضرائب.

نظر إليه باسل ساخرًا:

- تدفع الضرائب؟

- أنتم تدفعون قسمًا ضئيلاً منها وتسرقون الباقي. (على هامان يا فرعون!)

كان أحد المدعوين في حفل العشاء، السيد عدنان سلمان، مستثمرًا فلسطينيًّا من المقيمين في فرنسا منذ سنوات طويلة ولديه شركات واسعة، فبادر بالسؤال:

- وماذا عن المشروع الذي قدمته لكم حول مصنع الورق؟ هل أفهم أن المصادقة عليه تأخرت للسبب نفسه؟

فقال باسل:

- مشروعك في أروقة وزارة الصناعة، والوزير عهد لمسؤول الأمن الوقائي لمتابعة الموضوع معك.

استدار إلى صادق، مسؤول الأمن الوقائي، وسأله عن المطلوب، فرد عليه:

– لا تقلق.. خيرًا إن شاء الله. مقر جهاز الأمن يحتاج إلى صيانة، ووزارة الصناعة تحتاج إلى عدة سيارات وبعض المصاريف، لن أطيل عليك؛ ما رأيك بنصف الأرباح؟

– هل أفهم أنكم تعرضون علي المشاركة في المشروع.

ضحك صادق وقال:

– تقريبًا، لكن منك الفلوس ومنا الحماية.

– حماية ممن؟

– من البضائع الإسرائيلية المنافسة، ومن البضائع المستوردة، ومن اللصوص.

– أليست هذه مهمة الأمن الوقائي والمخابرات والشرطة؟

– صحيح، وكي يتحرك رجالنا فإنهم بحاجة إلى طاقة. الميزانية صفر، فكيف سنصرف؟

– يا سيد صادق.. أتفهّم طلب عمولة واحدة، لكنك تطالب بالكثير.

– ليس لي شيء والله. اسأل أمل.

نظر صادق إلى أمل وسألها:

– هل سنأخذ شيئًا؟

فقالت:

- أبدًا.. كله لصالح الوزارة.

أخفى عدنان اندهاشه، ولكن يبدو أنه لم يتعود أساليب الرشوة والقنص بهذه الطريقة، فقال له:

- حسنًا.. دعني أدرس الموضوع وأرد عليك غدًا.

صمت ثم سأل:

- ماذا لو خسر المشروع؟

- بسيطة.. نحن لنا في الأرباح وليس لنا في الخسارة؟

فقال أحد الحضور:

- يا عدنان.. هل تريد أن تحلبهم؟ هؤلاء دبابير لا تستطيع لحسهم.

رفع حسان كأسه وقال ملطفًا الجو:

- بصحة أمل.

فرد الجميع:

- بصحة أمل.

رن جرس هاتف أحد المسؤولين في الأمن الوقائي من الحاضرين:

- ألو؟

- ... ...

- ماذا قلت؟

- أكيد؟

- تمام. عظيم. سأتصل بك بعد فترة. أنا مشغول.

أغلق الخط ثم قال للجميع:

- آخر الأخبار: إسرائيل قصفت غزة وقتلت خمسة من جماعة حماس.

قال مسؤول المخابرات:

- إلى جهنم. عقبال البقية.

فرد عليه صادق:

- يا باسل.. عيب هذه الأقوال. من يسمعك يعتقد أننا يهود. دخيلك امسك لسانك.

- لقد تعبنا منهم. أنسيت ماذا فعلوا بنا هناك؟ إنهم يعرقلون عملنا، ولا يلتزمون بقرارات السلطة.

- رغم كل ما يحصل، فما صدر منك غير مقبول، فهؤلاء من شعبنا.

تدخل حسام ملطفًا الجو:

- باسل لا يقصد، لكن جماعة حماس زادوها، ويجب وضع حدّ لهم.

- نحن الذين نضع حدًّا لهم، وليس إسرائيل.

قال سرحان معلقًا:

- أرى أن تستنكروا الهجوم الإسرائيلي، ولا تتركوا أحدًا يصطاد في المياه العكرة.

- فكرة سرحان جيدة.

نادى صادق أحد المسؤولين من مرافقيه وقال له:

- ابعث الآن خبرًا إلى الصحافة بأن باسل يستنكر الهجوم على غزة، ويطالب إسرائيل باحترام تعهداتها، ويقدم التعازي لأسر الشهداء.

قطب باسل حاجبيه وقال لصادق:

- لماذا لم تذكر اسمك بالخبر؟

- فرد صادق قائلاً:

- كل الأصابع دائمًا توجه إليك بأنك تتآمر على حماس مع إسرائيل. بهذا التصريح تؤكد لأبناء شعبنا زيف ادعاءات حماس ضدك.

ابتسم بخبث. نظر إلى صادق وقال له:

- لم أعرف أنك بهذا الدهاء؟ حسنًا، وأرجو أن تضيف بأن السلطة الفلسطينية لا تسمح بالتفريق بين أبناء الشعب الواحد.

قال أحد الجالسين من قسم الشرطة:

- سبحان الله. من يسمعك الآن لا يصدق ما قلته قبل قليل.

فقال حسام:

- لماذا قلبتم سهرتنا بحديثكم عن الصواريخ؟ خلونا بسهرتنا الحلوة.

حمل زجاجة الفودكا بيده وعبأ كأس صادق، ثم قال للجميع: بصحة السلطة.. بصحة الرئيس عباس، ودقي يا مزيكا.

وقف حسام، ثم سحب أمل وسناء، وبدأ الجميع يتوجه إلى الوسط للرقص.

آه يا ليل.. آه يا عين.. لماذا يغني الناس دائمًا لليل؟ ألأنه الأجمل؟ أم لأنه يخفي فضائحهم عن عيون الآخرين؟!

اضطر سرحان أن يشاركهم، فوقف يرقص مع زوجته لعلها فرصة للراحة من ثرثرات لم تثر فضوله. لكنه لا يزال ينتظر الفرص لطرح مشكلته على أحد المسؤولين. بعد فترة بسيطة انسحب مع زوجته تاركًا الجميع بصخبهم.

قالت له:

- لماذا أحضرتني إلى هذه السهرة؟

- لم أتوقع أن تكون كذلك، لكن لا تقلقي، فلن تتكرر.

بعد قليل انسحب مسؤول الأمن، وظلت أمل ترقص مع الراقصين. جلس قريبًا من سرحان وقال له مجاملاً:

- يبدو أنك مثلي تتعب من الرقص؟ أو ربما رقصت في أمريكا ما فيه الكفاية.. ها ها ها.

- الرقص بعد الأكل متعب خصوصاً عندما تمتلئ البطون.

صمت سرحان قليلاً، ثم استغل الفرصة وسأل مسؤول الأمن الوقائي:

– مسألة أبناء القدس الذين تصادر إسرائيل بطاقاتهم وتجبرهم على الرحيل...

– نعرف كل التفاصيل لا داعي للاسترسال.

– وماذا لديكم من حل؟ ألم تناقشوا المسألة مع إسرائيل؟

– كما ترى فالحوار مع إسرائيل مثل حوار الطرشان. إسرائيل تضرب بعرض الحائط كل الاتفاقيات. الانتفاضة الأخيرة أعادتنا إلى الخلف، والرئيس لا يريد التركيز في الحوار على مطالب جزئية، ولكن على الحل الشامل.

– والعمل الآن؟

– أنت محام ماهر، ليس أمامك سوى مراجعة مكتب الداخلية، أو تكليف محام متخصص في قضايا الداخلية. يمكنك حاليًّا السكن في رام الله، فالحياة هنا لا تختلف عن القدس، والمغتربون من أمريكا يملؤون رام الله وقراها.

– أعرف ذلك، فمعظم سكان شيكاغو من فلسطينيي رام الله وقراها، ولكنها قضية عامة ومهمة.

– صحيح، ولكن هل هي القضية المهمة الوحيدة؟ إذا كان الرئيس لا يتحرك إلا بموافقتهم، فماذا نستطيع أن نفعله؟

ابتسم سرحان، وقد خاب أمله. كان يقول لنفسه بصمت: لا تعرفون سوى شرب الكأس واستغابة الناس.

اقتربت أمل. مسكت يده وسحبته قائلة:

- الرقص بدونك لا ينفع.

قبّلته، ثم طوقته بذراعيها.

نظر سرحان إلى إلهام، قال لها:

- لعل الشيء الوحيد الذي كسبناه بحضورنا هو أن نرقص معًا. تعالي نكمل الرقص على أنخاب سلطتنا الباسلة!

كان الجميع يلتفون بشكل دائري بينما أمل وصادق بالوسط. ربطت أمل شالاً على وسطها وبدأت تهز وسطها عندما بدأ المسجل بصوت عال، صوت حمادة هلال:

"مش كل حد يقول لك عني كلام تصدق

أنا زي موج البحر اللي يصيبني يغرق"

الأيادي ترفع يمينًا وشمالاً. فوق وتحت. إنها أمل، كانت أرفع من سناء، وطويلة، وصدرها غير منتفخ، لكن مؤخرتها بارزة خصوصًا مع هز الوسط. نزل حسام أمامها على الحلبة يهز مثلها، أو يحاول أن يكون مثلها، لكن أنّى له ذلك؟ كانت الخمرة قد دارت في الرؤوس فلا يدري كيف رقص. فجأة نزل مسؤول الأمن الوقائي وبدأ يرقص مع أمل،

وظل يهز بجسمه الذي أنهكه التعب حتى كاد يسقط على الأرض فتلقفته أمل وقادته إلى مقعد، وجلست بجانبه.

توقف الرقص. تعب الجميع. جاءت ساعة الانصراف. ودع الجميع حسام، وشكروه على حفلته الرائعة.

ودع سرحان معارفه وخصوصًا صديقه بهاء. قال له بهاء:

– حفلة رائعة. لا تنس، ستكون ضيفنا في الاحتفال القادم مع شلة أخرى.

– ماذا؟ لا يا بهاء.. يكفيني احتفال اليوم.

– لا تكن محافظًا، ولا تندهش مما ترى. هذه الحياة يجب أن تعيشها قبل أن تغدر بك الأيام.

– سيكون لنا حديث. دعنا الليلة نذهب لننام.

ودعت إلهام زوجة بهاء السيدة أحلام.

غادر سرحان مقر الاحتفال، بعد أن رقص مثلهم حتى مل الرقص. لم يكن يرقص فرحًا ولكن خيبةز كان مثل الذي يسكر لينسى همومه، أما هو فكان يرقص لينسى مأساته. كانت الضحكة تخرج من فمه عملاً بالمثل القائل "شر البلية ما يضحك".

هل السمر والسهر حرام؟ كلاّ، فمن حق أي مواطن أن يسهر وأن يرقص. ليس لذلك أي تأثير على سرحان، لكن ما أثاره تحوّل رجال

السلطة إلى ذئاب تفترس الناس. تحولهم إلى أصحاب عمل كل ما يهمهم ما يقبضون وما يصرفون.

قال لإلهام:

– أرجو أن تكون السهرة قد أعجبتك؟

– المشروب أفسد الحفلة، ولم يعجبني تصرف المسؤولين. كيف يأتي مسؤول المخابرات مع سكرتيرته بهذه الطريقة المخجلة وزوجته ربما تنتظره في البيت.

– يبدو أن حال سلطتنا لا يختلف عن حال زعماء الدول العربية. كنت أتأمل بهم خيرًا، لكن يبدو أن قضية بقائنا في القدس تعتمد علينا، وعلى تحركاتنا الشخصية.

(٩)

الساعة العاشرة إلا ربعًا صباحًا. كان سرحان في مكتب المحامي عزرا جولدمان، الكائن في شارع الملك جورج في القدس الغربية، فقد أخبرته السكرتيرة منذ أيام أن موعد لقائه بالمحامي اليوم الساعة العاشرة صباحًا.

كان معه أخوه الدكتور بسام ينتظران في غرفة الانتظار. قاعة انتظار واسعة. يبدو أن المحامي مشهور جدًّا. صحف عبرية كثيرة وإنكليزية، وبعض المجلات العربية كانت على الطاولة الوسطى.

هناك على الحائط الخلفي كانت صورة عزرا جولدمان يتقلد وسامًا من رئيس الدولة الإسرائيلية. محام كبير السن. له ذقن متوسطة الطول. يلبس على رأسه الكوفع (طاقية للمتدينين اليهود). يضع نظارات على عينيه. في صورة مجاورة يظهر شخص آخر لم يتعرف إليه سرحان جيدًا كان يقف في شيكاغو مع رئيس بلديتها (ريتشارد ديلي) قبل سنوات، يبدو أنها قديمة، فصورة ديلي هنا قديمة لا تشبه صورته الحالية.

وقف واقترب من الصورة ودقق النظر جيدًا، ثم قال في نفسه: هذه صورة (راندي)! راندي فلدمان! والله إنها تشبهه. ربما هو. من يدري؟ فاليهود علاقاتهم مع بعض قوية، وقيل لي إن (عزرا) من أمريكا أصلاً.

قطع حبل تفكيره صوت السكرتيرة تطلب منه مقابلة المحامي. تقدم مع بسام إلى غرفة المحامي. طلب من أخيه الدخول أولاً، وكان سرحان وراءه. رحب بهما المحامي بعد أن سلم عليهما، وطلب الإذن دقيقة لاستكمال المكالمة.

كان سرحان يدقق النظر به، لكأنه يعرفه. قال لنفسه: هل يمكن أن يكون هو؟ لا.. لا.. لا يمكن! كيف؟ هناك فرق في الوجه والحجم. من يدري لعل شكله تغير. الشيخوخة تغير معالم الإنسان.

أنهى المحامي مكالمته، فبادره سرحان بالسؤال المباشر:

- أنت تشبه راندي فلدمان!

نظر إليه عزرا بعد أن خلع نظارته...

- هل تعرف راندي؟

- طبعًا. لقد كنت ألتقي به أحيانًا في المحاكم.

هز عزرا رأسه، وسأله:

- معنى ذلك أنك محام!

- نعم.. سرحان. خ.

– أنت سرحان؟ لقد سمعت بك قبل عودتي إلى أرض إسرائيل. نعم أنا راندي فلدمان بنفسه.

– وغيرت اسمك إلى عزرا؟

– طبعًا غيرته إلى اسم يهودي. نحن اليهود نحب التمسك بتراثنا وديننا، وليس مثل العرب يحبون تغيير أسمائهم إلى الأوروبية.

ضحك د. بسام، فيما رد عليه سرحان قائلاً:

– ولماذا عدت إلى هنا؟

– لأخدم إسرائيل.

– وطبعًا سهّلوا لك الإقامة، ومنحوك جوازًا إسرائيليًّا!

– إنها البلد الوحيد لليهود. أنتم لكم ٢٢ دولة.

– نحن ليس لنا دولة يا عزرا. لقد حرمتمونا منها.

– حتى لا نضيع الوقت. لقد شرحت لي السكرتيرة القضية، وهي لا تختلف عن كثير من قضايا المواطنين العرب في القدس. القوانين كل يوم تتغير سيد سرحان، وهذا ليس من اختصاصي. أنا اختصاصي أن أحاول إصدار بطاقة هوية لك ولزوجتك كخطوة أولى نحو ضم الأولاد لكم، لكن حسب ما هو جديد اليوم، فمن المستحيل إعادة حق المواطنة لك. المطلوب أن تسكن في القدس لمدة سنتين قادمتين قبل أن تتقدم إلى المحكمة بالطلب.

- ولكن...

قاطعه وقال:

- دعني أكمل. سأفسر لك كل شيء. خلال مدة العامين لا تغادر القدس، لأنك إن سافرت فلن تعود، لأنك تكون قد خالفت مدة الفيزا (٣) شهور، وإن سافرت قبل انتهاء مدة الفيزا سيسمحون لك بالعودة، لكن ذلك لا يساعدنا في المحكمة لأننا لا نستطيع إثبات أنك من سكان القدس ومقيم فيها. لذلك عليك ألا تغادرها خلال تلك الفترة، أنت والعائلة. بعد عامين تقريبًا سنتقدم بطلبنا للمحكمة، لكن نريد منك حينها نسخ عقد الإيجار منذ اليوم حتى تلك الفترة، وصور شهادات الأولاد المدرسية، وتأمين السيارة، وأوراق التامين الوطني.. الخ. ستقدم لك السكرتيرة قائمة بالمطلوبات. أجرة المحامي خمسة عشر ألف دولار لأنكم خمسة، لكن اكتفي منك بـ (١٢) لأنك محام مثلي.

- هذا كثير؟

- سيد سرحان.. قضيتك معقدة، وتحتاج إلى عمل كثير. تذكر نحن دائمًا نبذل المستحيل لأجل موكلنا، لكن نجاح القضية يعتمد على القاضي وليس على المحامي وحده.

صمت ثم قال لسرحان:

- لماذا قررت ترك أمريكا والعودة إلى المشاكل؟

– ولكنك جئت قبلي على الرغم من أنك لست من مواليد القدس.

– اليهود يا سرحان أجدادهم في هذه البلاد منذ آلاف السنين. إنها أرضهم التي وعدهم الله بها!

– الله أم بلفور؟

قرر سرحان عدم إثارته كثيرًا حتى لا يعطل القضية فقال له:

– لقد قبلنا العيش جيرانًا لكم، لكن أنتم تصرون على ترحيلنا.

ابتسم عزرا وقال:

– نحن أولاد عم، ولهذا نريد مساعدتكم، لكنكم تمارسون الإرهاب ضدنا. على كل حال دعنا من السياسة. إن شاء الله تنجح القضية.

– ولكني أخالف قانون الفيزا!

– لا تقلق.. لن يلاحقوك الآن.

– وماذا عن بطاقة الهوية القديمة؟

– لن يجددوها، لذلك احرص عليها، وحاول أن تتحاشى حواجز التفتيش لأنهم سيطلبون منك تجديد البطاقة.

قال له بسام بالعربية:

– وكّله يا سرحان وتوكل على الله. ليس لديك خيار آخر.

قال د. بسام للمحامي مباشرة:

– موافقان.

سأله عزرا:

– يبدو أنك أخوه؟

– نعم.. هو أخي، طبيب أسنان، اسمه بسام.

– محام وطبيب أسنان، أنتم عائلة متعلمة.

قال د. بسام:

– عائلة متعلمة، ونسكن القدس منذ آلاف السنين، وإسرائيل تريد طردنا على الرغم من أنها منحتنا سابقًا رغمًا عنا بطاقات هوية زرقاء.

– صناعة القوانين ليست بيدي. أنا هنا للدفاع عن موكلي العربي. أنا ضد هذه الممارسات، ولكن لا أستطيع أن أفعل شيئًا.

– إذًا لنوقع العقد.

– حسنًا. ستقدم لك السكرتيرة الآن أوراق العقد توقعها وتدفع لها عربونًا أو ترسل شيكًا بالمبلغ غدًا. لا داعي للحضور. سنكون على اتصال دائم بك. إن تعرضت لأية مشاكل اتصل بي.

وقف بسام وسرحان. سلّما عليه. انتهت المقابلة. رن جرس السكرتيرة. حضرت على الفور، فأخبرها المحامي ضرورة تحضير عقد الاتفاق مع سرحان. خ، وأن لا تنسى عربون القضية، ثم قال لها:

– لا تنسي أن تسجلي رقم هاتفه، وبريده الإلكتروني لنكون على اتصال دائم به.

– هزت رأسها وأشارت لهما إلى طريق الخروج. وقع سرحان عقد الاتفاق وقدم لها (٢٠٠٠) دولار تحت الحساب. كان قد أحضر المبلغ معه، فهو يعلم مسبقًا أن المحامي سيطلب دفعة مقدمة لاستلام القضية، فهو محام، ويعرف كيف يتعامل المحامون.

عيزرا جولدمان. راندي فلدمان، سبحان الخالق!

سأله الدكتور بسام في الطريق إلى البيت:

– كأنك تعرفه جيدًا؟

– ليت الأمر مجرد معرفة، فهذا المحامي المنتفخ الكرش ذو الشعر الأشيب، كان قبل حوالي عشر سنوات قد اعتقل بتهمة الاشتراك مع متهم آخر يعمل في البورصة بسرقة (٤٣) مليون دولار كان قد هرّبها إلى إسرائيل، ولكنه اعتقل قبل سفره. الغريب أنه حكم (٤٣) شهرًا فقط. قالت القاضية التي حكمته إنها حكمت عليه شهرًا على كل مليون. هل تصدق؟ لكنه لم يسجن (٤٣) شهرًا، فبعد حوالي سنه ونصف خرج من السجن واختفى من البلد. سمعنا أنه في إسرائيل، لكن لم نعرف أنه أصبح محاميًا كبيرًا يتقلد وسامًا من رئيس دولتها. سبحان الخالق!

فقال له بسام: هؤلاء هم اليهود؛ يتجمعون من كل بلاد العالم ليؤسسوا دولة عصرية من لا شيء، أما نحن فحتى سكان مدينة في الشمال لا يحبون مدينة في الجنوب. هل تنكر أنهم أذكياء؟

- تقصد خبثاء.

- أيًّا كان ذلك، فقد غلبونا.

- قلها بشكل أوضح: هزمونا.

- أتشعر بمرارة الهزيمة؟

- إن لم نشعر بها، فكيف سنحاول إعادة الاعتبار لأنفسنا؟ كيف سنتذوق حلاوة النصر إن لم نعترف بالهزيمة؟ الإعداد للنصر جيدًا لن يتم إلا من قلب الهزيمة.

- ليس أمامنا خيارات كثيرة يا سرحان. نحن أمام مشكلة لا تحل إلا بهذه الطريقة. نحن يا أخي في غابة وحوش، النصر فيها للأكثر شراسة.

هز رأسه سرحان.

- صحيح، ولا مكان للعصافير إلا أعالي الأشجار.

- حتى أعالي الأشجار لم تعد آمنة، فالصيادون في كل مكان وهم أنواع، بعض الصيادين يصطادها ليأكلها، وبعضهم يصطادها ليتسلى بقتلها، حتى القتل كثيرًا ما يصبح نزهة أو ترويحًا عن النفس.

(١٠)

اليوم موعد سرحان مع أولاده لاطلاعهم على معالم القدس القديمة، فقد بقي يومان لبدء السنة الدراسية على الرغم من أن (حسن) و(عبير) قد بدءا دراستهما قبل ذلك بأكثر من شهر من خلال بعض المدرسين الخصوصيين. إنها فرصة ليعرف أولاده على شوارع وآثار القدس القديمة التي غير الاحتلال الكثير من معالمها ليقيم على أنقاضها بيوته الجديدة، وليستعيد معهم ذكريات الطفولة والشباب.

- هل ستأتي معنا يا إلهام؟

- طبعًا، أريد أن أكون معكم لنزور المسجد الأقصى ونصلي فيه معًا كعائلة واحدة .

حضّرت إلهام حقيبة تشبه حقيبة السفر وهيأت الأولاد كأنهم ذاهبون في رحلة بعيدة، مع أن البلدة القديمة لا تبعد عن مكان سكنهم سوى خمسة كيلو مترات.

لم تنس إلهام حمل الكاميرا، فهي فرصتها لالتقاط الصور التذكارية.

توجهت العائلة نحو باب العامود (بوابة دمشق)، المدخل الرئيس للبلدة القديمة، لكنهم اضطروا إيقاف سيارتهم بعيدًا عن المدخل، فقد غيرت السلطات الإسرائيلية المنطقة المحاذية للباب، وافتتحت شارعًا جديدًا، وغيرت اتجاه السير، فعطلت على المواطنين إيقاف سياراتهم وهم في الغالب من العرب في حين سهلت أماكن لوقوف السيارات في المدخل الجنوبي للبلدة القديمة المطل على سلوان، والذي يسميه العرب (باب المغاربة) حيث يستخدمه اليهود للدخول إلى حائط البراق (المبكى) المحاذي للمسجد الأقصى، والذي يدعي اليهود أنه المكان المقدس لهم منذ الملك سليمان.

الدخول إلى البلدة القديمة بالنسبة إلى سرحان كالدخول إلى بوابة التاريخ. إنه الطريق إلى ماضي الآباء والأجداد، إلى حضارة كانت ولم تزل تصارع للبقاء. إنه كالإطلالة على الوادي من قمة الجبل، من هناك ترى الطبيعة في قمة روعتها، وفي البلدة القديمة ترى التاريخ من أوسع أبوابه، كأنك تستمتع بالماضي والحاضر معًا.

كان باب العامود مكتظًّا بالباعة والمحلات على الجانبين، بعضها لا يزال يحتفظ بأصحابه القدماء أنفسهم، وأخرى تغيرت الوجوه فيها، فقد ورثها الأبناء عن الآباء. محلات كثيرة غيرت بضاعتها، وأخرى ظلت كما هي كأنها قررت عدم التخلي عن مهنة الآباء.

جامع الشيخ لولو بعد المدخل إلى اليسار لا يزال مكانه، والناس يترددون إليه. مسجد قديم لا أحد يعرف عمره، لكن والد سرحان كان يقول له وهو صغير: إنه يعرف ذلك المسجد منذ طفولته.

مقهى زعترة لا يزال كما هو، لكن تغير زبائنه كثيرًا. كان في الماضي محطة لأبناء البلدة، أما اليوم معظم رواده من الغرباء أو المتسكعين في شوارع المدينة، الذين يجلسون هناك يراقبون البنات ويعاكسونهن.

المحلات الجديدة إلى اليمين بنيت بعد (١٩٦٧) بسنوات، فأصبح الشارع مزدحمًا بالمارة. عدة درجات ثم وصل سرحان والعائلة إلى مفترق طرق. كان على سرحان أن يشرح لأولاده عن شوارع البلدة القديمة فهو لم يأت للتنزه معهم فقط، بل ليعلمهم كيف يقرؤون تاريخها، حتى إلهام لم تكن تعرف كل تلك المعلومات لأنها لم تولد داخل البلدة القديمة، ولم تعرف أزقتها الكثيرة.

من هنا إلى اليمين قبل نزول الدرجات الأخيرة هذا الشارع المتعرج يؤدي إلى حارة النصارى، وفي الطريق تصادفك كلية تراسنطة، إحدى مدارس القدس للعرب المسيحيين. إنه شارع للسكان لا يوجد فيه محلات إلا ما ندر تعتمد على سكان الشارع فقط. أما هذا الشارع الفرعي إلى اليسار، فهو يؤدي إلى حارة السعدية، وهو كذلك شارع غير تجاري، كلاهما مليء بالدرج، فالقدس عبارة عن قمة جبل عال. في هذا الشارع

يوجد مخبز شعبي قديم منذ قدم الأجداد يملكه اليوم محمد علي أبو سنينة وقد سمي باسمه (مخبز محمد علي). يفتح أبوابه طوال الليل، يقدم لزبائنه أقراص البيض، واللحمة، والكعك بالسمسم الطازج الذي تشتهر به القدس عن كل مدن فلسطين.

بقي أمامنا الآن شارعان مكتظان بالناس، الأكثر اكتظاظًا إلى الجهة اليمنى يدعى باب خان الزيت، وقد سمي هكذا لأنه كان في قديم الزمان قدم أجدادنا يضم الكثير من معاصر الزيتون والسمسم، واليوم لن تجدوا شيئًا يذكركم بالزيوت القديمة. آخر معصرة زيتون تم إقفالها في مطلع السبعينيات وتحولت إلى محل لبيع التحف. أما ذلك الشارع إلى اليسار الممتد أمامنا فيدعى شارع الواد، وهو يمتد حتى حائط المبكى، ومن هنا يتجه المواطنون إلى المسجد الأقصى، وهو كما ترون يتجه إلى الأسفل، في حين أن باب خان الزيت الموازي له يتجه إلى الأعلى. ما يميز باب خان الزيت أنه الشارع الأكثر ازدحامًا في البلدة القديمة، ومحلاته إلى الجانبين تضم كل شيء من الخضار واللحوم والملابس، كل محل متخصص بشيء معين أشهرها وأقدمها (مطحنة ازحيمان) المشهورة بالقهوة، ها هي تتربع في مدخل باب خان الزيت. هل تشمون رائحة القهوة؟

أجابه حسن:

- آه ما أروع رائحتها!

– أما بالكنافة فـ(محلات جعفر) أصبحت الأكثر شهرة، مع أن المحل الثاني (حلويات أبو سير) أقدم في القدس.

قالت إلهام:

– يجب أن نعود بعد انتهاء رحلتنا لتناول الكنافة لدى جعفر.

وافق الأولاد جميعهم.

– أما هذا المحل الذي يقع قبل محلات جعفر فهو مشهور بالمكسرات والشوكلاته ويدعى (محمص عويضة) كان قديمًا محمصًا مشتركًا لعويضة وزعترة لكنهما اختلفا وانتهت شراكتهما، ففتح زعترة مقابله محمصًا آخر، وهذه المكتبة القديمة التي تشبه محلات الآثار فتدعى (مكتبة الأندلس)، أكثر مكتبات القدس قدمًا لبيع القرطاسية، وكانت سابقًا تبيع الكتب.

قال لهم سرحان:

– تابعوا السير فالشارع مزدحم.

توقف قليلاً وقال لهم:

– هنا مفترق طرق، إلى اليسار طريق الآلام حيث الدرج ويؤدي إلى شارع الواد. لاحظوا كيف أصبح شارع الواد أقل ارتفاعًا من باب خان الزيت. هنا مقابله في باب خان الزيت (المرحلة السابعة)، فهي حسب الديانة المسيحية المرحلة السابعة من رحلة السيد المسيح عندما حكم عليه الرومان بالصلب وحملوه الصليب.

انتهى باب خان الزيت وتحول إلى سوق العطارين، الذي كان سوقًا بالفعل للعطارين، لكنه اليوم يضم محلات الملابس والذهب، ونادرًا ما ترى فيه محلات للعطارة. سوق العطارين مسقوف من الأعلى لذلك فهو آمن بالشتاء للمارة، وهو شارع قصير (حوالي ٢٠٠ متر) في نهايته شارع البازار الممتد بالاتجاه الآخر، حيث إلى اليمين يصل الصاعد إلى باب الخليل، إحدى أبواب القدس، وإلى اليسار يتعرج الشارع إلى باب السلسة، أما المتجه إلى الأمام فسوف يدخل إلى شارع الكاردو اليهودي، الذي افتتحه اليهود هناك بعدما هدموا البيوت العربية التي كانت قائمة هناك قبل حرب (١٩٦٧)، لكن قبل الدخول إلى الكاردو دعوني أريكم سوق اللحامين الموازي لسوق العطارين ولا يبعد عنه سوى أمتار، فمعظم محلاته متخصصة في بيع اللحوم وتوابعها.

كانت رائحة اللحوم تزكم الأنوف، فقالت عبير:

- أوف.. رائحة كريهة.

- ضحكوا جميعًا، واستداروا إلى الخلف فشاهدوا محلاً صغيرًا يصنع العوامة (نوع من الحلويات يسميه اللبنانيون عوامة القاضي).

- إنه المحل الوحيد المتخصص بالعوامة الطازجة .

بلال:

- م م م زاكي. اشتر لي عوامة يا بابا.

كلهم يريدون عوامة، فاشترى لهم سرحان عوامة ساخنة، حملوها معهم وتابعوا سيرهم إلى شارع الكاردو. قال لهم سرحان:

– هنا في مدخل الشارع. كان زقاق صغير يضم حوالي عشرين محلاً يدعى سوق الباشورة، لا أعرف سبب تسميته، لكني أعرف أن كل المحلات فيه كانت متخصصة في بيع الملابس القديمة المستعملة والمستوردة. ما عدا (مقهى السلايمة) الذي كان صاحبه الحاج تميم السلايمة.

– ما هذا الشارع الجميل؟ (قالت إلهام، لأنها تدخله لأول مرة).

– شارع الكاردو كما أخبرتكم كان مكانه سابقًا بيوت عربية هدمها اليهود. فبعد حرب (١٩٦٧) بدؤوا يجبرون الناس على ترك منازلهم في تلك المنطقة التي تسمى الآن حارة اليهود، وكانت قبل (١٩٦٧) تدعى حسب اسم الشارع الموازي للكاردو والممتد إلى سور البلدة القديمة ويدعى حارة الشرف. قبل (١٩٤٨) كان بعض اليهود يسكنون فيه، لكنهم أثناء الحرب التحقوا بالدولة الإسرائيلية الوليدة، وقد استغل اليهود بعد حرب (١٩٦٧) هذه الحجة ليعدوا المنطقة كلها يهودية (ناسين ما سلبوه في القدس الغربية من بيوت العرب) وطردوا سكان المنطقة تحت قانون أقرّوه يجبر المواطن العربي للرحيل مقابل تعويض مالي حددوه لهم، ومن رفض أخرجوه بالقوة دون تعويض تحت مبرر تطوير

المنطقة وإعادة إعمارها، والحقيقة هي إسكان اليهود بها بعد ترميمها وهذا ما حصل.

شارع الكاردو شارع عصري جديد لا علاقة له بالبلدة القديمة كأننا فيه قد خرجنا من التاريخ كله.

انتقلوا في سيرهم إلى الشارع المجاور، حارة الشرف. كل المحلات هنا تم ترميمها وتجديدها، لكنهم يضعون العراقيل أمام المواطنين العرب إذا قاموا بترميم بيوتهم بحجة الحفاظ على طابعها القديم، مع أنكم تشاهدون هنا كيف تغير كل شيء. انظروا، هذا الكنيس اليهودي بجانب المسجد العمري الذي أغلقه اليهود لأن صوت صلاة المسلمين أزعجهم. لطالما حضرت فيه أصلي مع المصلين وأنا صغير.

أشار سرحان إلى محل قريب:

- هنا كان مطعم صغير يدعى مطعم (نعيم أبو الحمص). كنا نشتري منه الفول والحمص والفلافل.. ما ألذها! ومقابله كان مطعم آخر لشخص من عائلة النتشة.

قال حسن:

- أتتذكر كل ذلك يا أبي؟

- كأنني أعيش الحدث الآن. أرى الناس أمامي يقفون على الدور ينتظرون دورهم لصحن فول للعائلة مع الزيت بثلاثة قروش فقط.

قالت عبير لأمها:

- ألا تتذكرين شيئًا يا أمي؟

- لم أكن موجودة في تلك الأيام، لكنها معلومات قيمة عن هذا الجزء من مدينتنا الذي نجهله نحن أبناؤها الذين عشنا فيها.

- هذه المنطقة يا أولاد كانت مليئة بالمخابز.

قال لهم بعد أن ساروا عدة أمتار:

- هنا في أعلى الدرجات كان (مخبز أبو سياس البيتوني)، لم يعد الآن مخبزًا. أما هناك دعونا نكمل السير إلى اليمين (مخبز محفوظ أبو اسنينة) كان مشهورًا بالكعك مع السمسم وبالخبز البيتي، لكن المخبز الذي بعده بأمتار فهو ملك عبد الجواد السلايمة الآن وقبله حتى بعد الحرب بسنوات كان ملكًا لرضوان وزوز أبو حلمي أحد أشهر الخبازين في البلد بعد الأرمني (قواديس) في حارة الأرمن.

سألت إلهام:

- لماذا ترك اليهود هذين المخبزين لأصحابها؟

- كنت أتوقع هذا السؤال. البناء الذي يقع فيه المخبزان ملك دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس منذ ما قبل قيام إسرائيل، وربما حرصت إسرائيل على عدم التعرض إلى الأبنية التي تملكها الأوقاف الإسلامية، وهي دائرة دينية تعترف إسرائيل بوجودها حتى لا تثير مسألة دينية، فبقيا

على حالها. بعد أمتار كما ترون نهاية الشارع، هنا في البيت الموجود إلى اليمين كنت أسكن يومًا ما قبل حرب (١٩٦٧)، وكان يسكن معنا عدة عائلات. في المكان المقابل لباب البيت كانت منجرة كبيرة لآل المظفر، أما بجانبها فكان مصنع للبلاستيك هدمته إسرائيل بعد حرب (١٩٦٧) بساعات لتوسع الشارع المؤدي إلى حائط المبكى الذي تعده مقدسًا، ومقابل ذلك المصنع بمحاذاة سور القدس كانت إحدى مكاتب وكالة الغوث للاجئين، كان اللاجئون يرسلون أولادهم إليه كل صباح حاملين بطاقة التأمين وطنجرة صغيرة ليحصلوا على بعض الحليب، يطعمون به أطفالهم.

كان حسن مبهورًا من البلدة القديمة، فقال لأبيه:

– كأننا أمام فيلم وثائقي. أنت تجيد الوصف أبي. ليتني أصبح محاميًا مثلك.

قالت إلهام:

– يجب أن تسبق أباك في العلم، لذلك لا تضيع وقتك في اللعب.

أما عبير فقالت:

– إلى أين الآن؟

– سنتّجه الآن يسارًا إلى أسفل المنحدر حيث يقع حائط المبكى وباب المغاربة، ومن هناك سنتوجه إلى شارع الواد. ربما في مرة قادمة سآخذكم

إلى الجهة المقابلة حيث الطريق إلى باب الخليل، إحدى أبواب القدس، وهناك سنمرّ على دير الأرمن وحارة النصارى وكنيسة القيامة.

قالت إلهام:

– لماذا سنذهب إلى حائط اليهود؟

– لتشاهدوا المكان الذي كان يومًا مزدحمًا بالسكان العرب، فطردهم اليهود منه، وهدموا بيوتهم على ما فيها. هم يدعون أن هيكلهم القديم كان هناك لكن كل الحفريات التي تمت في المنطقة لم تكشف أي أثر لهيكل مزعوم، فهذه كلها بنايات إسلامية وعربية.

سرحان يقف مع أولاده على سور القدس على بعد أمتار من باب المغاربة. يرى الواقف عليه سلوان ورأس العامود وجبل الطور خارج السور، ومن خلفهم داخل البلدة القديمة يرون حائط المبكى بساحته الواسعة.

قال لهم:

– هذه المنطقة كلها يا أولاد كان اسمها حارة المغاربة، وحتى هذا الباب للبلدة القديمة اسمه باب المغاربة لأن المسلمين المغاربة كانوا يشكلون معظم سكان هذه المنطقة قبل مئات السنين، بعضهم كانوا يأتون للتبرك بالمسجد الأقصى والصلاة فيه، حتى أن قسمًا من تلك العائلات أصبحت جزءًا من وطننا، ولم نعد نميزها عن غيرها، سوى من

بقي يحمل اسم المغربي، فعائلة المغربي في القدس لم تكن عائلة واحدة بقدر ما هي مواطنون مغاربة أضافوا كلمة المغربي على أسمائهم، ومنهم من جاؤوا كمقاتلين مع صلاح الدين الأيوبي وساهموا في تحرير القدس من الصليبيين مثل عائلة العلمي.

الطريق المؤدية من هناك إلى باب السلسلة عبر الدرج، والتي ما زالت قائمة حتى الآن، فكانت تسمى عقبة بومدين، نسبة إلى الرئيس الجزائري هواري بومدين. كان في المنطقة ثلاث بقالات صغيرة، اثنتان في الشارع الذي يمتد أسفل عقبة بومدين وواحد هناك، قريبًا من الشارع الرئيس الذي كان صاحبه أحد المواطنين المصاب بالعجز، كان قصيرًا جدًّا، وله انحناءة في الظهر. هناك عند باب محله كانت ساحة كبيرة، وكنا نلعب فيها. أما تلك البناية الممتدة أمامكم بجانب السور فقد كانت مدرسة للبنات، صادرتها إسرائيل وألغت المدرسة. وكما تشاهدون فقد حفرت حول السور أكثر من أربعين سنة لعلها تجد هيكلها المزعوم فلم تجد شيئًا.

سأل حسن:

– وأين البيوت التي كانت في هذه الساحة؟

– بعد حرب (١٩٦٧)، ما أن وصل الجيش الإسرائيلي إلى القدس حتى دخلوا بيوت الناس هناك، وطلبوا من أصحابها إخلاءها خلال

ساعتين، لأنها ستهدمها على من بقي فيها، فخرج الناس يحملون ما استطاعوا، ورحلوا إلى بيوت أقارب لهم، وبعضهم سكنوا المساجد، ثم قامت الجرافات الإسرائيلية بهدمها كلها بما فيها، وجعلتها ساحة كما ترونها، كأنها لم تكن يومًا تعج بأهلها وناسها، كأنني لم أكن أمر بتلك الشوارع. يا إلهي.. كأنها فيلم سينمائي حضرناه مرة واحدة ولم يعد باستطاعتنا إعادته لأنه حرق ولم يعد صالحًا للاستخدام. مئات العائلات اضطرت إلى الرحيل، وهناك في نهاية الحائط القريب من الدرج المؤدي إلى عقبة بومدين فتح اليهود نفقًا تحت البناء القادم ليربط تلك الساحة بشارع الواد ليسهلوا على اليهود الدخول إليها.

بعد أن اقتربوا من ساحة المبكى، تقدم منهم أحد أفراد الشرطة الإسرائيلية الذي اشتبه بوجودهم، فلم ير من قبل مواطنًا عربيًّا يتصرف كالسياح يدقق في الساحة ويلتفت يمينًا ويسارًا. دقق في بطاقتي هويتي إلهام وسرحان، وفتش الحقيبة التي يحملونها، ثم سمح لهم بالدخول إليها.

ساحة المبكى ساحة واسعة الآن بعد أن هدم اليهود كل المنازل فيها وسيطروا على المنازل المحيطة بها من كل الجوانب. لم تعد تلك البيوت المحيطة تضم عربيًّا واحدًا إلا تلك البنايات التي تطل على الساحة وأبوابها باتجاه باب السلسلة، فهي غير مسكونة، وتعد بنايات آثارية، في

إحداها مكتبة الخالدي القديمة التي كانت يومًا إحدى مكتبات القدس المهمة، وما زالت تحتوي على الكثير من الكتب حول القدس وغيرها، فعائلة الخالدي من العائلات القديمة في فلسطين، كانت تحتل مكانًا بارزًا في المجتمع الفلسطيني القديم أثناء الحكم العثماني، فقد كان أبناؤها من الطبقة المتعلمة في وقت سادت فيه الأمية في المنطقة .

سار الجميع باتجاه النفق الذي فتحه اليهود ليربط ساحة المبكى بشارع الواد من تحت شارع باب السلسلة، وتحت البيوت العربية في المنطقة، من هناك بعد أمتار قليلة أصبحوا في شارع الواد دون الحاجة إلى صعود الدرج عبر عقبة بومدين. شارع الواد ليس مزدحمًا بالمارة لأن محلاته التجارية قليلة ليس مثل باب خان الزيت، لكنه مزدحم بالسكان، فهو شارع سكني في الأساس، وكثير من محلاته التجارية كانت بيوتًا، فحول الناس بعض غرفها إلى محلات، وقاموا بفتح أبواب لها على الشارع.

سمي هذا الشارع بالواد لأنه ينحدر إلى الأسفل من باب العامود كأنه متجه إلى واد. أهميته تكمن في أنه الشارع المؤدي من باب العامود إلى المسجد الأقصى، وفي وسطه تقريبا يقع مستشفى الهوسبيس القديم الذي خدم سكان المنطقة أكثر من مائة عام افتتحته الحكومة النمساوية وأغلقته إسرائيل في ثمانينيات القرن العشرين لأنها لا تريد أن توفر له المواد الصحية اللازمة، فظل مغلقًا إلى اليوم.

بعد عدة أمتار توقف سرحان وبدأ يشرح لهم عن بوابة الحرم الشريف المغلقة واسمها بوابة سوق القطانين، مقابلها عقبة الخالدية نسبة إلى عائلة الخالدي التي سكن بعضهم فيها قبل مئات السنين وبعضهم ظل هناك حتى بعد احتلال إسرائيل للقدس. هناك إلى الزاوية يقع حمام تركي قديم كان يستخدم حتى سبعينيات القرن العشرين، يدعى حمام العين. كان الناس يستخدمونه في الأفراح والمناسبات حيث البيوت لم تكن في وضعها الحالي، ولم يكن الماء الساخن متوفرًا بشكل دائم.

قال بلال:

- بابا تعبنا، أنا بدي آكل.

عبير وحسن:

- وأنا كمان.

قالت إلهام:

- ما دمنا هنا، لماذا لا نأكل في مطعم أبو شكري؟ إنه قريب من هنا.

هز سرحان رأسه وأجاب على الفور:

- بدون اعتراض.

سأل حسن:

- وماذا سنأكل فيه؟

- حمص، فول، مسبّحة، فلافل، كباب، متبّل... الخ.

سأل بلال:

- ألديهم بطاطا؟

قالت له إلهام:

- يوجد بطاطا مقلية، وبطاطا مع بيض.

- هيه، أنا بدي أبو شكري.

لم يكن المطعم بعيدًا، فهو في شارع الواد بعد حوالي (٣٠٠) متر مقابل مفرق طرق طريق الآلام المتجهة إلى باب خان الزيت. مطعم أبو شكري مطعم شعبي له تراث وتاريخ في البلدة القديمة، فهو أشهرها في صناعة الحمص بدون منازع.

كان يمتلك محلاً صغيرًا (كمعظم محلات البلدة القديمة) في مطلع الطريق المؤدي من باب خان الزيت إلى حارة النصارى على بعد أمتار من المرحلة السابعة في باب خان الزيت، وقبل المرحلة الثامنة بعدة أمتار، كان الناس، خصوصًا في شهر رمضان المبارك، يقفون بالدور لشراء الحمص منه، وبعد احتلال إسرائيل للقدس، ذاع صيته لدى اليهود، فصاروا يتوافدون إليه حتى من تل أبيب. لم يكن مطعمه الصغير الذي يتسع ربما لحوالي عشرين شخصًا يلبي حاجة زبائنه فاضطر بعد سنوات عديدة الانتقال إلى مكان أوسع ربما بعشرة مرات من مطعمه القديم، فكان مطعمه الجديد في شارع الواد. ظل هناك حتى توفي، فعلّق أبناؤه صورته

في المطعم واستمروا في مهنة أبيهم لكنهم وسعوا في الخدمات والمأكولات للزبائن.

لم يطل انتظارهم، فقد حضر الأكل بعد ربع ساعة فقط من طلبه. كان سرحان قد حرص أن ينوّع فيه حتى يرضي جميع الأذواق، وحتى يشبع الجميع بعد هذا المشي الطويل في البلدة القديمة.

قالت عبير:

- آي.. الفلافل ساخن جدًّا.

قال لها أبوها:

- لأنه طازج. انتظري قليلاً حتى يبرد.

بلال بدأ يلتهم الحمص بشراهة:

- هذا حمص زاكي. اشتروا لنا منه كل يوم.

كلهم مسرورون. أكلات شعبية لم يذوقوها في أمريكا، فللأكل هنا نكهته الأصلية، لا يعرفها إلا من زاروا البلدة القديمة وجربوا مأكولاتها الشعبية التي يحاول اليهود سرقتها والادعاء أنها من أكلاتهم.

بعد أن شبعوا شعروا بالتعب، إنه النعاس ما بعد الظهر، والجو حار نسبيًّا، لذلك لم يرد سرحان أن يتعبهم. قال لهم:

- سنذهب الآن إلى المسجد الأقصى، إنه على بعد مائة متر، سنرتاح في ساحته، ونستظل بظلاله وشجيراته الكثيرة، ونزور داخل المسجد، وقبة

الصخرة، وبعد ذلك سنرى إن كان لديكم متسع من الوقت لزيارة مكان آخر.

(١١)

المدارس تفتح أبوابها، ومهمة سرحان اليومية توصيل الأولاد إلى المدرسة وإعادتهم بعد الظهر، فالطرق لم تعد آمنة كالسابق، ولا يوجد باص ينقلهم إلى مكان سكنهم، وحواجز التفتيش الراجلة كثيرة، وحسن يتعرض للاستفزاز من عناصر الجيش الإسرائيلي الذين يضايقون الشباب العرب أينما كانوا لأنهم جيل الحجارة الذين يخيفون العدو بحجارتهم البريئة، التي لا تعني سوى جملة واحدة:

"ارحلوا عنّا".

بعد عدة شهور استطاع أن يجد سائقًا لنقل أولاده وعدد من أولاد الجيران الذين يدرسون في المنطقة نفسها، فصارت إلهام تنزل بهم إلى باب العمارة التي يسكنون فيها تنتظر السيارة، وما أن تغادر حتى تعود إلى البيت. وعندما اطمأنت عليهم صارت تراقبهم من النافذة وتركتهم يذهبون وحدهم.

ليس الوضع سهلاً على حسن وعبير تحديدًا لأنهما لم يستوعبا اللغة العربية بعد، وقد افتقد حسن أصدقاءه دفعة واحدة. كان يلعب معهم، ويراسلهم، ويذهب إلى السينما معهم، وإلى المكتبة. أما هنا فالأمر مختلف؛ أصدقاء جدد، ومدرسة جديدة، ولا نواد كالتي عرفها، ولا مكتبات كبيرة، ولا مسابح طوال السنة.

أمه إلهام كانت تشعر بوضعه الجديد، وتحاول ألا تتركه أسير فراغه، فمهمتها دمجهم بالوطن الجديد. فالوطن إن لم يشعر الأولاد باندماج فيه سيتركونه بعد ما يكبرون.

منذ انتقاله من الولايات المتحدة إلى القدس، أصبح حسن نشيطًا في المراسلات الإلكترونية، وبريده لا تنقطع عنه الرسائل، خصوصًا من أصدقائه هناك، فهي فرصته الوحيدة للتواصل معهم.

كان أحيانًا يتحدث معهم عبر الماسنجر أو السكايبي، فكان ذلك يخفف من غضبه ويشعر أنه معهم.

إنه يحن إليهم. صحيح أنه بدأ يتأقلم مع الوضع الجديد، وأصبح لديه أصدقاء يلتقي بهم أحيانًا فيلعبون أو يتراسلون، لكن مجال اللعب هناك أكبر والحياة أوسع. هنا حتى الشوارع أحيانًا لا تصلح لشيء حتى للمشاة.

(ماذا أفعل؟ لقد عاد أبي وأعادنا معه، لعله يرى مالا نراه.)

كلما شعر بالملل استنجد بالبريد الإلكتروني، فقراءة الرسائل والرد عليها تخفف عنه الكثير من المتاعب. لديه اليوم مجموعة من الأصدقاء قام بتقسيمها إلى مجموعات؛ مجموعة تضم أصدقاءه في أمريكا، ومجموعة تضم أصدقاءه في القدس، وهكذا. معظم مراسلاته، خصوصًا إلى أصدقائه في الولايات المتحدة، بالإنجليزية، لكنه بدأ حديثًا يراسل أصدقاءه في القدس بالعربية، على الرغم من أنه يقضي وقتًا أطول في كتابة كل كلمة، فهو يستخدم إصبعين فقط، ويبحث عن كل حرف على لوحة المفاتيح حتى يجده.

لفتت انتباهه رسالة من صديقه رشيد الذي ظل على اتصال دائم معه. رشيد من أب لبناني وأم مكسيكية، خليط من العرب والمكسيك، يتحدث الإسبانية مع أمه والعربية مع أبيه. أحيانًا كثيرة يترجم بينهما بعض الاصطلاحات، لكنه يستخدم الإنجليزية في المدرسة ومع أصدقائه. كل الأصدقاء يلقبونه بالأميغو، وهي كلمة إسبانية تعني صديق، حتى غلب على اسمه.

رسائله إلى حسن تثير في نفسه الحنين إلى أصدقائه. كانوا شلة من الطلاب العرب وغير العرب. كانت جولي الأمريكية تحاول التقرب منه، وكان يخرج معها كثيرًا، لكنه كان يرى ميسون تغار منها تريد أن تبعدها عنه، تكرهها، وتتمنى لو تضربها. كان حسن يخاف التقرب من ميسون

حتى لا يحرجها مع أهلها، فالعرب بعضهم محافظون، ولها أخ في المدرسة كان يلاحقها دائمًا ويعد عليها حركاتها، لكن اهتمامها بحسن فتح قلبه الغض لها.

ميسون كانت من أصل سوري؛ فأمها نادين ووالدها خلدون من حلب، فتاة لطيفة، ابتسامتها لا تفارقها. كانت الوحيدة التي جاءت قبل سفره بيوم إلى بيته لتودعه حاملة معها ورقة طويلة لفت بها شيئًا قدمته له، وعندما فتحها كانت وردة جميلة حملت كل ما تود قوله له: "حسن مع السلامة، سأفتقدك، أحبك". ودارت ظهرها عائدة إلى بيتها، لكنه لحق بها ليشكرها، وظل يسير معها حتى اقتربت من بيتها.

- شكرًا ميسون، أنا لن أنسى وردتك الجميلة.

اقترب منها غير خائف، وطبع قبلة سريعة على شفتيه، وعاد أدراجه.

فوجئت بما قام به، لكنها أحست بطعم أول قبلة تسري في جسمها. تلفتت حولها. لم تر أحدًا. تابعت المسير تحلم بحسن يعود على فرس أبيض يحملها ويطير بها إلى السماء.

رسالة رشيد أعادت إلى حسن مزيجًا من المشاعر الجياشة. لم يعد يعرف متى سيعود، هذا إن عاد أصلاً، فهل يترك أبوه وحيدًا ويترك أمه ويسافر؟ لا.. لا.. من المبكر استخلاص النتائج.

كتب إلى رشيد يرد عليه.

انتهى حسن من رسالته، وقبل أن يرسلها انقطع التيار الكهربائي عن البيت، فبدأ حسن يصرخ:

- اللعنة على الكهرباء.. اللعنة على اليهود.

جاءت أمه من غرفة الجلوس حيث كانت تتابع مع عبير برنامجًا لمسابقات الأغاني، عندما انقطعت الكهرباء، سألته:

- ما الأمر؟ لماذا تلعن الكهرباء؟

- انقطع التيار قبل أن أرسل الرسالة، والآن علي كتابتها من جديد.

- لا تخف.. ستكون محفوظة.

- كيف وأنا لم أحفظها.

- بما أن التيار انقطع عن جهازك، وليس عن السيرفر، ستبقى الرسالة في قسم درافت، وستجدها هناك عندما يعود التيار. ما عليك سوى إعادة فتحها وإرسالها.

- أمتأكدة؟

- طبعًا.

شعر حسن بارتياح، ثم سألها:

- متى سيعود التيار الكهربائي؟

- عندما تقوم الشركة بإصلاحه.

- ولماذا ينقطع كل فترة؟

– لأن إسرائيل لا تسمح للشركة العربية بتحديث المولدات حتى تفشل الشركة وتسيطر هي عليها.

– لعنهم الله. كل مشاكلنا منهم. كل مصائبنا منهم. دائمًا ينظرون لي نظرة احتقار. إنني أكرههم. ليتهم يموتون وأرتاح منهم.

كان بلال وعبير قد حضرا واستمعا إلى حديث حسن.

قال بلال:

– أنا أخاف منهم. بنادقهم طويلة وكبيرة. أخاف أن يقتلوني كما قتلوا إيمان حجو.

نظرت إلهام إلى بلال مستغربة:

– وكيف عرفت عن إيمان حجو؟

– حسن قال لي عنها. الله يرحمها. مسكينة قتلها اليهود وعمرها شهور فقط.

– لا تخف يا حبيبي. لن نسمح لأحد أن يقتلك.

فردت عبير:

– كان شرطي قبل يومين ونحن قرب المدرسة ينظر إلي بوجه عابس ويحرك حواجبه لي. لقد أرعبني.

فقال حسن:

– أنا شاهدت قبل أسبوع جنديًّا يصوب سلاحه تجاه أم مع طفلها ويصرخ بها: "اذهبي من هنا وإلا أطلقت عليك النار." خافت المرأة، فحملت ابنها ووضعته خلفها، وقالت للجندي: "نحن ذاهبون إلى المستشفى، إلى مستشفى المقاصد." لكنه رفض، فعادت المرأة تحمل ابنها ترتجف من الخوف.

– إنهم يفعلون ذلك ليدفعوا الناس للهجرة من فلسطين.

– ولكنك هاجرت مع أبي من فلسطين.

– يا بني نحن لم نهاجر. لقد سافر أبوك للدراسة، ثم للعمل، وعاد كما يعود كل مواطن. السفر ليس فقط للفلسطينيين، فكل شعوب العالم يسافر أبناؤها ويتغربون، حتى الأمريكيين هناك من يعمل في السعودية، أو الصين، أو ما شابه.

– وهل ستمنعاني من السفر للدراسة؟

– عندما تتخرج سنبحث عن جامعة مناسبة لك.

– في أمريكا؟

– سنرى في حينه.. ربما!

– هل هذا وعد؟

– وعد، إن نجحت بامتياز سنتركك تختار الجامعة.

فرح حسن وشعر بالتحدي، ثم قال:

- ماذا لو رفض والدي؟

- اتركه لي. أنا سأقنعه.

ضحك حسن وقال:

- بابا لن يرفض لماما طلبًا.. ها ها ها.

ضحكت عبير وضحك بلال.

تركتهم وذهبت إلى الغرفة المجاورة، كانت تمتم كأنها تحادث نفسها: "الأبناء لم يتركوا أسرارًا للآباء، حتى بلال الذي لم يخرج من البيضة بعد، كان قبل سنة ونحن في أمريكا يأتي إلى غرفتنا ليلاً يدق علي الباب ثم يدخل. يسأله أبوه:

- ماذا تريد يا بلال؟

- أنا لا أستطيع النوم.

- لماذا يا حبيبي؟

- من أصواتكم. لقد أزعجتموني. إذا سمحتم لا تتحدثوا أو خفضوا أصواتكم قليلاً.

- طيب حبيبي، أنا متأسف. لن أصدر صوتًا يزعجك.

- أوكي.

عاد بلال إلى غرفته .

يا الله. الأصوات في غرف أمريكا تنتقل بسرعة لذلك كنت وسرحان نهمس همسًا، فآذان بلال حساسة تلتقط كل صوت، لم يبق إلا أن تلتقط أحاسيسنا ومشاعرنا."

(١٢)

تغيرت الحياة في القدس عما كانت عليه قبل ٢٥ سنة. هذا ما توصل إليه سرحان بعد هذه الشهور التي عاشها في القدس.

كنت في سبعينيات القرن الماضي من النادر أن تجد طالبات المدارس يتحجبن، أما اليوم فالحجاب ظاهرة منتشرة في كل مكان. طالبات المدارس المحجبات يملأن الأسواق. أهي العودة إلى الدين؟ أهي العودة إلى الغذاء الروحي؟

إن كان الجواب نعم، فلماذا ازداد الانحراف في المدينة؟ لماذا زادت السرقات والسطو المسلح؟ لماذا زادت العصابات ومعاكسات الفتيات في الشوارع؟ لماذا هذا الكم الكبير من الشباب الضائع الذين يتسكعون في الشوارع؟

كانت هذه الظاهرة غائبة قبل ربع قرن .

هل الوضع الاقتصادي هو السبب، أم أنه الوضع الطبيعي لتطور الحياة؟

المصداقية بين الناس تغيرت؛ الوفاء، والأمانة، والإخلاص، وحب الخير، خصال أضحت سلوكات غريبة.

حتى الأحزاب السياسية أصبحت أكثر صدامية ضد بعضها بعضًا، كأنهم يتصارعون على سلطة حقيقية.

أين أصدقاء زمان؟

إذا اتصلت ببعضهم تذرعوا بالانشغال. البعد عنهم بلّد مشاعرهم. صارت لهم مشاكلهم ومصالحهم اليومية، كثيرون سافروا خارج الوطن. لم يبق إلا الذين لا يستطيعون الهجرة، أو الذين لا يعرفون سوى هذا الوطن. هم الذين حافظوا عليه من الاندثار. إنهم المجاهدون الحقيقيون في معركة الدفاع عن القدس، وأنا أعلق شهادة المحاماة على الحائط لأنضم لهم.

لم يعد سرحان يقلق بالحواجز التي يقيمها الجيش الإسرائيلي، فقد تعوّد عليها. أصبح التأخير ظاهرة يومية ملازمة لكل شيء. كأنه قدر محتوم على الإنسان الرضوخ له كل يوم.

لم تعد المسافات بين المناطق تقاس بالكيلومترات، بل بالزمن الذي تستغرقه.

الصامدون في الوطن كالقابضين على الجمر؛ إنهم يتحملون كل الإهانات، والعراقيل، والشتائم، والتأخير عن العمل من أجل القدس.

للوطن عبير ولا أطيب، لا يميزه إلا الذين عشقوا ترابه، وهواءه، وغباره، الذين عشقوا ياسمينه، ورياحينه، وشقائق النعمان فيه، وزعتره، وزيتونه، وتينه.

الطريق إلى الأقصى اليوم مثل الطريق إلى كابول؛ مليئة بالمخاطر والصعاب.

اليوم الجمعة، والوضع متدهور. الجيش والشرطة تملأ القدس في كل مكان. القدس كأنها ثكنة عسكرية.

حكومة إسرائيل قررت منع المصلين المسلمين الذين تقل أعمارهم عن ٤٥ عامًا من الصلاة في المسجد الأقصى، بل منعت الذين لا يقيمون في البلدة القديمة وتقل أعمارهم عن ٤٥ عامًا من دخول البلدة القديمة نفسها التي يقع المسجد داخلها.

حتى الصلاة في القدس أصبحت إثباتًا للذات الفلسطيني، إثباتًا للحضور الفلسطيني، للانتماء إلى الوطن وليس فقط واجبًا دينيًّا وعبادة من العبادات.

لم يأخذ سرحان معه أحدًا من الأولاد، فالأوضاع صعبة، والشرطة تمنعهم من الدخول، لذلك جاهد لكي يصل إلى القدس عبر الحواجز الكثيرة ما بين شعفاط والبلدة القديمة في القدس. في هذا اليوم يمارس الجنود ساديتهم، ويحاولون إثارة المواطنين العرب لمنعهم من الصلاة،

لكن عندما يأتي اليهود للصلاة جماعات ترقص وتغني، لا أحد يمنعهم، بل تغلق الطرق أمام العرب لراحة اليهود.

نظر أحد الجنود الإسرائيليين إلى سرحان عندما وصل باب العمود وسأله:

- بطاقة الهوية.

قدم له بطاقته القديمة. نظر إليها الجندي. الصورة ليست هي، فهذه بطاقة قديمة، قال له:

- لماذا لم تجددها؟

فقال له سرحان:

- ذهبت إلى تجديدها قبل أيام فطلبوا مني العودة بعد شهر.

اضطر إلى الكذب، لعله يدخل، فلا يمكن الصدق مع الجنود، فهم لا يفهمون سوى تلك اللغة. ألم يحتلوا بلادنا لأنهم صدقوا أساطيرهم عنها بأنها أرض الميعاد؟!

مَن من العاقلين يصدق أن الله خالق الناس كلهم يعد اليهود بميثاق مخصوص بأرض كانت مسكونة بالكنعانيين، والفينيقيين، والفلستينيين، واليبوسيين؟ أليسوا هؤلاء عباد الله أيضًا؟

ولماذا يفعل الله (سبحانه وتعالى) ذلك وهو الذي لا يميز بين مواطن وآخر إلا بالتقوى؟ ولماذا بنو إسرائيل أفضل من غيرهم؟ ألم يتآمر أولاد

يعقوب (أبو الإسرائيليين) على أخيهم يوسف وباعوه؟ وكيف يكون هؤلاء شعب الله المختار؟

بعد ثوان من التدقيق في البطاقة أعادها له وأشار إليه بالمرور.

شعر سرحان براحة كبيرة؛ فقد مر عن أهم دورية للجيش.

كانت دوريات الجيش تملأ البلدة القديمة. المحلات مغلقة مَن سيفتح أبوابه ما دام الجيش أكثر من المواطنين؟

كان الجنود يدققون في النازلين إلى الصلاة، ولا يسمحون للمرور لمن هم أقل من ٤٥ سنة، ويشيرون إلى من يشتبهون به، يفتشونه ثم يدققون ببطاقته قبل أن يسمحوا له بمواصلة السير.

في الطريق من شارع الواد إلى المسجد الأقصى اقترب سرحان من البيت المسمى بيت (أرئيل شارون)، الذي اشتراه رئيس الوزراء الإسرائيلي قبل فترة طويلة من صاحبه (عواد أبو سنينة) الذي لعنه سكان القدس، ورفضوا الصلاة على جثمانه عندما توفي، فدفن بحضور ثلاثة أبناء من أبنائه وزوج ابنته، كانت أصغر جنازة في القدس لرجل ميت.

تابع سرحان سيره حتى وصل إلى مقهى الباسطي، حيث التقى مصادفة بالحاج علي، أحد سكان القدس الذي يعرفه سرحان منذ كان طفلاً يجلس في المقهى لعله يستريح في الطريق إلى المسجد، فالحاج علي تجاوز الآن الثمانين سنة، ولا يسير إلا بعكاز يساعده على المشي، ولا يزال

يسكن في قناطر خضير القريبة من المقهى، لذلك فقد تعوّد على الصلاة في المسجد الأقصى معظم الأوقات، فهو واحد من الذين يحظون بشرف حمايته من المتطرفين اليهود، ومن محاولات الحكومة هدمه وبناء هيكلها المزعوم مكانه.

سلم سرحان على الحاج علي وسأله:

- هل أنت في طريقك إلى المسجد؟

- أليس هذا وقت الصلاة؟

- إذًا هات يدك وتعال نذهب معًا.

سار الاثنان ببطء، فالحاج علي لا يستطيع المشي بسرعة. كانا خلال سيرهما يتبادلان الحديث حول الوضع الراهن.

- لِمَ كل هذه الحشود يا حاج علي؟ كأننا في حرب.

- هي حربهم المستمرة علينا. يريدون منع الناس من التحرك للتظاهر سلميًّا للتعبير عن رأيهم.

- لم يسمحوا إلا لمن هم فوق الـ ٤٥ سنة!

- لو استطاعوا لمنعوا الجميع.

- ومن يمنعهم؟

- حرصهم من أن يظهروا أمام العالم بأنهم يمنعون الناس من أداء شعائرهم الدينية.

في الطريق بعد عدة أمتار كان علم إسرائيل يتدلى إلى اليمين على الحائط من الشباك في الطابق الثالث.

أشار الحاج علي بعكازه إلى العَلم وقال:

- إنه يتدلى من الشقة التي سيطروا عليها. يأتون إليها بالمستوطنين الشباب الأكثر حقدًا على العرب والمسلمين. وظيفتهم إزعاج المارة بأصواتهم وحركاتهم ليجبروا الآخرين على الرحيل، حتى عندما فرضوا أنفسهم علينا كجيران لم يحترموا أخلاق الجيرة، ومارسوا كل ما هو سيء ضدنا.

نظر سرحان. كانت كاميرا معلقة إلى اليمين بعد المرحلة الخامسة بأمتار، فسأل الحاج علي:

- ما هذه الكاميرا يا حاج علي؟

- ألم ترها من قبل؟

- لم تكن موجودة قبل سفري، ولم أنتبه لها بعد عودتي.

- يوجد مثلها عشرات الكاميرات يا سرحان في كل شوارع البلدة القديمة. إنها كاميرات مرتبطة بمقر "القشلة" في القدس بباب الخليل (مقر الشرطة المسؤولة عن البلدة القديمة، وهو المقر نفسه الذي كان يستخدم من عهد الأتراك ثم الإنجليز، ثم الأردن، وأخيرًا إسرائيل)،

حيث يراقبون هناك حركة المارة ليطمئنوا على مستوطنيهم، وإذا أحسوا بأي تحرك شعبي توجهوا لقمعه على الفور.

– الملاعين لم يبق إلا أن يراقبوننا في بيوتنا، لكن لماذا ترك الناس هذه الكاميرات؟

– أحيانًا يكسرها بعض الشباب، لكنهم يعودون فيستبدلونها، ثم لا تنس جواسيسهم في كل مكان.

– يا حاج علي، هؤلاء الجواسيس لو أتحكم بهم!

– ماذا ستفعل بهم؟

– سأعلقهم من أرجلهم، وأترك رؤوسهم على الأرض، ثم أترك الجرذان والفئران تقرض وجوههم.

– اللهم اهدهم إلى الصواب.

– الجواسيس ليسوا بحاجة إلى هداية، بل إلى عقاب.

وصل سرحان والحاج علي إلى مفرق الطريق المؤدي إلى الحرم الشريف. انعطف إلى اليسار حيث يقع باب الحرم المسمى بباب المجلس، هناك تقع مكاتب إدارة الأوقاف الإسلامية قرب مدخل الباب.

استدارا إلى المجلس، ففوجئ سرحان بكثرة أفراد الشرطة والجيش هناك.

همس للحاج علي:

– ما هذه الثكنة؟ ألم يكف كل الجنود الذين صادفناهم في الطريق؟

– إنها رسالة يا بني! رسالة نحملها نحن للأبناء لنخيفهم من جبروت إسرائيل وقمعها حتى لا يفكروا بالاحتجاج مستقبلاً، أو التظاهر ضد إسرائيل.

اخترق سرحان والحاج علي وعدد من المصلين هذا الكم الهائل من أفراد الجيش والشرطة، وكان على سرحان أن يبرز بطاقته مرة أخرى ليسمحوا له بالدخول.

أما الحاج علي فلم يسأله أحد عن بطاقة. ربما لأنهم حفظوا شكل وجهه لكثرة تردده على المسجد، وربما لأن عكازه وتجاعيد وجهه وما تبقى من شعر أبيض له، بطاقته إلى الدخول.

للمكان رهبة الإيمان؛ فهو أولى القبلتين لدى المسلمين، وهنا كان عمر بن الخطاب يومًا ما. وفيه صلاح الدين بعد تحريره من أيدي الصليبيين.

قال سرحان للحاج علي وقد صارا في ساحة الحرم متجهين إلى المسجد الأقصى:

– كم أشعر بالراحة وأنا داخل إلى الحرم الشريف.

– إنها راحة الإيمان. هذا البلد الساكن فيه كالمتعبد في غيره. فالذين ظلوا فيه، وحافظوا على مقدساته، وتمسكوا ببيوته وحجارته، لهم ثواب عظيم.

– ألن ينالنا شيء من هذا الثواب؟

– لكل ثوابه، والثواب من عنده، والطريق أمامك ما زالت مفتوحة. كل صلاة في المسجد الأقصى كألف خارجه، فلا تترك هذه الفرصة تفوتك.

– صدقت، فالصلاة هنا ليست كالصلاة في مسجد آخر. إنها صلاة الصمود. صلاة التمسك بهذا الصرح العظيم أمام محاولات هدمه وإحلال الهيكل المزعوم مكانه. أما كان بإمكانهم بناء هيكلهم بجانبه، كخطوة نحو التسامح الديني؟ ما دمنا جميعًا نصلي لله الواحد، لماذا هذا الإصرار على إحلال الهيكل محل المسجد؟

– عليك بالصبر والدعاء، ولا تقنطوا من رحمة الله.

– هل أنت متفائل؟

– ما دام أمثالك معي في الصلاة، فأنا متفائل.

كانت خطبة الجمعة عن القدس ورمزها الديني بين المسلمين، وأهميتها كمعلم ثقافي حضاري للمسلمين، ودورها على مر التاريخ. ولم ينس خطيب الجمعة التأكيد على عدم التنازل عنها في أية مفاوضات كما فعل الراحل ياسر عرفات، فالقدس جوهر الصراع مع العدو الصهيوني، لأنها رمزنا الديني، مسلمين كنا ومسيحيين. وأكد خطيب المسجد على الصمود في القدس، وطالب الناس بعدم الهجرة من البلدة القديمة،

والصمود فيها، وناشد أصحاب البيوت في القدس التساهل مع إخوانهم المستأجرين وتخفيض قيمة الإيجار لتشجيعهم على السكن في القدس، ومساعدتهم لتحمل أعباء الصمود في هذا البلد المبارك.

كما أشار إلى المضايقات التي يتعرض لها أصحاب البيوت العرب في البلدة القديمة، حيث يُمنعون من ترميم بيوتهم الآيلة للسقوط، وجعلها بيوتًا تتوفر فيها شروط سكن صحية حديثة. هدفهم أن نهجرها ليسيطروا عليها ويعملوا هم على ترميمها لإحلال المستوطنين اليهود بها.

وفي ختام خطبته قال: أيها المسلمون.. الحرم الشريف أمانة في أعناقكم، فإن تقاعس حكامنا عن تحريره، فلا تتقاعسوا في الدفاع عنه، ومنع اليهود من السيطرة عليه لبناء هيكلهم المزعوم مكانه.

(١٣)

أشهر طويلة مرّت على سرحان وعائلته في القدس، ولا يزال بدون عمل. يصرف من النقود التي ادّخرها من عمله في الولايات المتحدة، والتي سوف تنضب إن استمر على هذه الحال.

كان لا بد من إيجاد عمل يساعده على تحمل أعباء الحياة، ومصاريف المحامي الجديد، ومطالب الأولاد. ليس باستطاعته العمل في محاكم إسرائيل حتى لو رغب فهو ليس مواطنًا في نظر إسرائيل، ولا يريد العمل في رام الله، فالطريق إليها كل يوم تمر عبر حواجز تفتيش كثيرة وبطاقة هويته قديمة ويكاد يسمح له اجتياز الحواجز بها. لذلك وافق على اقتراح أخيه عدنان شراء مطعم صغير وبيع الحمص، والفول، والفلافل، وتوابعها، قرب مفرق طرق حزما في بيت حنينا. وكان على سرحان، بدل دراسة الملفات، دراسة طريقة إعداد المأكولات بمساعدة أحد الطباخين العاملين معه.

- واحد حمص مع زيت.

- اثنين فول مع طحينية.

التضحية من أجل الوطن ليست في قرار العودة إليه، بل في قرار الصمود فيه. الاستشهاد في سبيل الوطن يأتي مرة واحدة، لكن متاعب الحياة تواجهك كل يوم.

عشرون سنة أمام المحاكم، والآن دور الفلافل.

بعض زبائنه كانوا من طلبة المدارس القريبة الذين أحبوا خدمته واحترامه للزبائن.

- عمّو.. واحد فلافل لو سمحت. (سألته طالبة مدرسة).

- أمرك عمو تفضلي.

- شكرًا.

أصبح يسمع كلمة (عمو) مائة مرة باليوم ويقولها مثلها. لم تعد كلمات مثل سيدي القاضي، على لسانه. القضاء في إجازة. أحيانًا كان يمر عليه أولاده بعد المدرسة مع أمهم يصرون على أكل الفلافل من يد والدهم.

- أزكى فلافل من عند بابا. (قال بلال).

- ما أزكى الفول من يديك الحلوين. (قالت إلهام).

كلهم يحبون مأكولات سرحان. مطعمه صار مشهورًا على الرغم من تواضعه وصغره، لكن سرحان وضع فيه كل طاقته. كان يعمل هناك ساعات طويلة.

كان أكثر ما يسعده رؤية طلاب الصباح؛ فهم يذكّرونه بأولاده، ويذكّرونه بأيام كان فيها طالبًا في المدرسة. كان يشترى أحيانًا ساندويتش الفلافل سادة لا يضع فيه سوى الفلافل، أما اليوم فالسلطة والشطة. أين اليوم من أيام زمان؟!

كان منهمكًا في إعداد الساندويتشات. فجأة قال له أحد الرجال وقد نزل من سيارة أمام المحل:

– أرجو أن تحضّر لي ثلاثة ساندويتشات فلافل.

نظر الرجل إليه، ثم بدأ يحدق في وجهه. فجأة قال له:

– ألست المحامي سرحان؟

نظر إليه سرحان:

– أهلاً.. أهلاً.. أهلاً عماد. كيف حالك؟

– يا رجل.. تقلي فلافل وأنت محامي كبير. ماذا حصل في الدنيا؟

ابتسم سرحان وقال له:

– ضريبة الوطن. لا أستطيع العمل في المحاكم، فماذا أفعل؟

– ولماذا عدت من أمريكا؟

– لأكون مع أولادي في القدس. لم أعد أشعر بالراحة في أمريكا.

– من محام في وسط المدينة إلى بائع فلافل في بيت حنينا؟

– وما المانع يا عماد؟

- كان بإمكانك أن تبقى هناك حتى توفر مبلغًا محترمًا من المال، ثم تعود وتتقاعد.

- والأولاد؟ واللغة؟ والمدارس؟

- يا سرحان لست الوحيد هناك.

- هذا خياري وأنا سعيد هنا. خذ فلافلك. الحساب علينا.

- ولو.. سأدفع أو لا آخذه.

- خلاص.. ستدفع في المرة القادمة. كم شهرًا ستبقى أنت هنا؟

- قل: كم يوم؟ أنا هنا حتى الأسبوع القادم.

- لن أعطلك. لا تنس أن تزورني قبل سفرك.

- ولو.. سأزورك خلال اليومين القادمين. إلى اللقاء.

تنهد سرحان بعد مغادرة عماد. لقد كان أحد زبائنه، وقد ساعده في تقديم أوراق شركته عندما افتتح معرضًا لبيع السيارات للتصدير إلى دول الخليج. كانوا عدة أشخاص شركاء. أوضاعهم المالية جيدة، وتجارتهم تسير بشكل جيد. يشترون السيارات المستخدمة من محلات المزادات ليبيعونها في دول الخليج.

صاروا من أصحاب الملايين، ولا يفكرون بالقدس إلا للزيارة، فمن أين لهم ترك أعمالهم والعودة إلى هنا لقلي الفلافل؟ كل منا ينظر إلى الأمور من زاويته؛ بعضنا يضع المال في مقدمة أولوياته. بعضنا الأولاد.

بعضنا الدراسة. بعض الشباب يستشهدون لا يطمحون سوى في جنان النعيم.

رن سؤال عماد في رأسه من جديد: من محام كبير إلى بائع فلافل؟!

نعم.. من محام كبير إلى بائع فلافل. لم لا؟ يكفي أنه الأشهر، وطلاب المدارس يتسابقون إليه كل صباح. إنه فلافل سرحان. خ، الذي يضع على حباته السلطة والبطاطا والشطة. إنه الفلافل الذي سيربطه بالقدس ويساعده على الصمود. إنه الفلافل الممزوج ببهارات الغربة والبعد عن الوطن. ألا يستحق الوطن منا أن نضحي لأجله بشهاداتنا؟ أم علينا البكاء على أطلاله، وشرب نخب محبتنا له في بارات الغربة وحانات دول الغرب والشرق؟!

(١٤)

عندما يهل الربيع، ويقترب الصيف، تزداد حفلات الأعراس في فلسطين، ففي الصيف يسهل على الناس إقامة أفراحهم خارج القاعات، ويسهل على المدعوين الحضور، وربيع ٢٠٠٦ هلّ على القدس، فازدادت الأعراس، وكثرت بطاقات الدعوة لدى سرحان، ولم يعرف أيها يشارك فيه، فقد أصبحت حفلات يومية، ومَن كثرتْ معارفه كثرت دعواته. ولأنه محام من أمريكا، وأخ للدكتور بسام وللتاجر عدنان، فقد أصبح أشهر من نار على علم، ناهيك عن مطعمه الصغير الذي عرّفه بكل سكان المنطقة؛ فلافل (أبو حسن) أصبح مضرب المثل. سبحان الله. محام في أمريكا، وبائع فلافل في القدس.

قال سرحان متمتمًا: لا.. ليس فلافل وحده، فلدينا حمص، وفول، وكباب، وشاورما، وفتّة حمص، ومسبّحة، وسلطة مع طحينية، وكبدة وكلاوي...، أليس هذا أفضل من مطاعم الـ (المكدانولد) في الولايات المتحدة؟!

اليوم الجمعة. سرحان والعائلة مدعوون إلى حفل زفاف ابن أحد تجار القدس الكبار، السيد رفيق، الذي كان تلميذًا معه أثناء الدراسة.

الحفلات في القدس أنواع؛ بعضها يشارك الجميع (نساءً ورجالاً) في القاعة نفسها، لكن أغلبهم يقسم المدعوين إلى قسمين، قسم للنساء، وقسم للرجال، وكان حفل رفيق من هذا الطراز، فترك زوجته مع حسن وعبير في قسم النساء، وذهب مع حسن إلى قسم الرجال.

الأعراس عادة تجمع كل أطياف الناس. كانت القاعة كبيرة جدًّا والمدعوون بالآلاف، بعضهم كان يتهامس بأنه الحفل الأكبر في تاريخ القدس. لماذا لا يكون الأكبر؟ فالعريس ابن أحد التجار الكبار في القدس لديه العديد من المحلات المتنوعة، فهو تاجر يستورد الملابس، والأدوات الكهربائية، ويملك سلسلة مطاعم، وعمارات. إنها مناسبة لتنافس التجار الكبار، كل منهم يريد أن يصبح حديث الناس بأنه الأكبر والأكثر ثراءً، يتسابقون بإقامة الحفلات والسهرات لتثبيت نفوذهم، والدعاية لمصالحهم.

أحد المدعوين همس لصاحبه:

– ليتهم يتنافسون في عمل الخير. كان يمكن اختصار الحفل، والتقليل من المصاريف، وتقديمها للعائلات الفقيرة.

فردّ عليه صديقه:

- ولكنه لا يقصر، ويريد أن يفرح بابنه، إنه ابنه البك.

فقال له الرجل:

- مهما قدّم ويقدم، هناك مصاريف لا داعي لها. انظر لماذا كل هذه اللحوم؟ إنها تبذير لا داعي له.

فجأة اقترب منه أحد الشباب الذين يعرفهم وهمس له:

- هل تريد كأسًا؟

- لا. أشكرك.

يبدو أنهم لا يعرفون أنه لا يشرب الخمر.

كان الحفل غريبًا على سرحان: تغير الناس يا ترى، أم أنني في حفل خارج القدس؟

همس في أذنه أحد المعارف الذين التقى بهم في الحفل:

- أنت هنا في حفل رفيق ، فما تراه هنا لن تراه في كل مكان، وربما لن تراه.

انتقل المدعوون الذين أنهوا غداءهم إلى قاعة مجاورة، حيث يجلسون براحتهم لتناول الفاكهة، والحلويات، والقهوة السادة، وتدخين الشيشة لمن يرغب، وشرب الخمر لمن يريد منهم.

ولأن شرب الخمر غير محمود في القدس الفلسطينية، فإنه يقدم بكؤوس ملونة لا ترى ما في داخلها، لكن بعض الذين يشربونها يتباهون

بشربها كأنهم يريدون أن يشار إليهم بالبنان كما يشار إلى صاحب الحفل نفسه.

قال حسن لأبيه وقد خرج عن صمته:

– أرى الناس هنا يبذّرون في احتفالات أبنائهم أكثر من أمريكا! ألم تقل لي إنهم فقراء؟

– نعم يا بني، فقراء، لكن ليسوا مثل رفيق، فهناك طبقة من التجار، وكبار الملاكين، الذين لا يقدّرون ظروف البلد، ولا أوضاعها السياسية والاقتصادية.

– ولماذا نشارك في احتفالاتهم؟

– لأننا جزء من هذا المجتمع، والناس تجامل بعضها بعضا.

كان الناس في القاعة موزّعين على درجات مثل قاعات الخلفاء أيام زمان. في الصف الأول يجلس رجال الأعمال الكبار وأصحاب النفوذ في البلد، ومعهم بعض مسؤولي السلطة المدعوين .والصف الثاني، التجار الأقل نفوذًا وبعض الأصدقاء والأهل، أما في بقيه القاعة فيجلس بقية القوم.

حتى حفلات الزفاف لدى التجار طبقات، يدعون أن الطبقية شعار اليساريين فقط، لكنهم يمارسونها بذكاء، فالحفل يفرض نفسه عليك، إذ كيف يمكنك أن تجلس في حفل وسط تجار كبار يتحدثون عن الاستيراد

والتصدير والملايين، وأنت كل ما يهمك أسعار المواد الأساسية، وارتفاع الأجور؟ ستجد نفسك غريبًا بلا شك، فالغربة تكون أحيانًا في حفل يضج بالناس، وبالموسيقى، واللحوم التي لا تجد من يأكلها.

فجأة مال إلى أحد المدعوين من معارفه يجلس بجانبه:

- هل تشاهد ما أراه؟

- وماذا ترى؟

- انظر هناك في الزاوية.. هل تعرف من الجالس هناك؟

- من تقصد؟

- الذي يدخن الأرجيلة بجانب أبو العريس!

- تقصد جميل الـ...

- أقصده نفسه، أليس هو؟

- هو نفسه، الجاسوس الشهير، أكبر جاسوس في القدس الذي ساهم في اعتقال الكثير من أبناء شعبنا.

- أصبح اليوم من المدعوين لاحتفالات بعض تجار القدس الذين يتسابق بعضهم إليه لتسهيل بعض معاملاتهم التجارية لدى سلطات الاحتلال.

- إنها مصالح مشتركة يا سرحان. هو ينفذ لهم مصالحهم وهم يدفعون له مقابل ذلك، ودعوته إلى هذه الاحتفالات جزء مما يدفعونه له.

– ولكنهم بذلك كأنهم يغفرون له جرائمه. ماذا سأقول لابني الجالس بجانبي؟

– هذه هي القدس اليوم مزيج من كل شيء، لعلك لم تتوقع ذلك! لعلك تتساءل: أليس هذا رفيق الذي كان يشارك معنا في المظاهرات ضد الاحتلال؟

– نعم. هو! هل تذكر عندما ضربه الجنود بالهراوات ونقلناه إلى المستشفى؟ هو نفسه الذي يجلس الآن مع الجاسوس الإسرائيلي جميل، وها هو يضحك معه. الناس يا سرحان تتغير حسب مواقعها. الأفكار تتغير!

– يا إلهي.. كل يوم أكتشف كأنني غبت عن القدس ألف سنة وليس عشرين سنة فقط. التغيرات مذهلة داخل المجتمع.

– لا تقلق كثيرًا. هذا كله كان موجودًا من قبل، لكنا لم نكن نعرفه لأننا كنا من جيل الشباب الذي لم ير كل ما في المجتمع من متناقضات، أما اليوم وقد كبرنا، فقد رأينا الواقع كما هو. رأينا ما لم يره أبناؤنا بعد، ولا يحسون به مثلنا.

– إنها تغييرات لم أتوقعها.

– سنتعوّد عليها لأنها تحدث رغمًا عنا. المخدرات تملأ البلد، والمد الديني تصاعد، والفقر انتشر في كل أزقة البلد، والتبذير والغنى الفاحش

تمادى. المقاومة تصاعدت، والجواسيس انتشروا في كل مكان. كل المتناقضات في تفاقم. الخير في تقدم، والشر في تكاثر. التفاؤل قائم، والتشاؤم يشق طريقه. الدعارة انتشرت، والجوامع زاد روّادها. اللصوص تضاعفوا، ودعاة الخير زادوا. أنت في مدينة تجتمع فيها الأضداد. قد لا تتوحد، ولكنها تتعايش. بعض الناس قد تُفاجأ بأنك تراهم يوم الجمعة في المسجد يصلون، وإن بحثت الآن ستراهم يشربون الخمر، بل منهم من يدخن الحشيش.

صمت بعض الوقت ثم تابع:

- بعض الذين يهاجمون الجيش الإسرائيلي بالحجارة، ويقودون التحركات الوطنية، تراهم في اليوم التالي يتسكعون في شوارع القدس يلاحقون الفتيات ويعاكسونهن.

- لم يعد الواحد يعرف أين الصح وأين الخطأ. لا تدع حسن يسمعك. دعه يحمل الصورة الإيجابية عن الوطن.

- لا تستطيع أن تخفي عنه كل شيء. ها هو يرى جميل الجاسوس ربما لا يعرفه، لكنه سيسمع به، ربما يتساءل في داخله: ما هذه الأعراس؟ حتى طلبة المدارس هذه الأيام يتذمرون، يريدون تحويل الدراسة إلى ساحة ألعاب على الحاسوب والـ"بلاي ستيشن".

- أهو الاحتلال الذي يتحمل كل ذلك؟

– الاحتلال ونحن معه. لقد غاب دور المدرسة. غاب دور المجتمع. غاب دور الدولة فلا يوجد دولة، غاب دور الأب. غاب دور الإمام. إنها قنوات فضائية لا تقدم لنا سوى الرقص والأغاني الهابطة. إنه جيل المتناقضات كما أخبرتك. جيل الوعي واللاوعي. جيل يحمل راية ويبحث عن أخرى. جيل متردد وحازم، كأنه حازم في تردده أو متردد في حزمه.

– حسنًا لنغادر.

– لكن إن غادرنا نحن فلن يغادر غيرنا. نحن لا مصالح تربطنا برفيق، لكن هناك من لا يريدون أن يغضبوه، ويتمنون رضاه.

– لو كنت أعرف أن رفيق هكذا لما حضرت هذا الحفل. سأخرج دون أن أضع نقوطًا للعريس، فلا يستحق مني شيئًا.

– لا تغضب، فالسلطة عادت ولم تفعل لجميل شيئًا.

– إن كان للسلطة اعتباراتها بسبب مفاوضاتها مع إسرائيل، فهذا لا يعني أن نعطيه صك براءة.

يبدو أنني أحتاج إلى فترة لأستوعب هذا التغيير.

خرج سرحان من الحفل دون أن يسلم على أهل العريس ويبارك لهم، وودع الجالس بجانبه، وفي طريقه إلى باب العامود كان يستعيد أيام زمان حينما كان يشتري صحيفة الفجر المقدسية أو الشعب من عمير دعنا،

وهناك في تلك الزاوية حيث المطعم القريب منه، والذي كان مغلقًا بعد حرب (١٩٦٧) وظل كذلك لأكثر من ثلاثين سنة. كان يدعى البنك العقاري، وأمامه كان دائمًا يجلس أبو حسن شاهين، يأكل كعكة حصل عليها من بائع الكعك الواقف هناك أمام بسطة على عربة فوقها خزانة من خشب وزجاج يخبئ بها الكعك والفلافل والبيض المشوي لاتقاء الرياح والغبار.

(١٥)

أبو حسن شاهين يعرفه سكان البلدة القديمة في القدس الذين عاشوا فيها في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، فقد كان أشهر من نار على جبل، ويجهله الجيل الذي جاء بعد ذلك لأنه اختفى منها دون مقدمات، ولم يعرف أحد أين ذهب، وقد كثرت حوله الأقاويل والحكايا.

بعضهم قال إنه توفي ودفنه أهله دون علم أحد، لكن آخرون قالوا إن إحدى السائحات الأجنبيات رق قلبها على حاله، ومنظر قدمه، فقررت علاجه على حساب كنيستها، فقدمت له الأوراق اللازمة وسافر معها إلى بلادها. أحدهم قال إنه رآه يصعد إلى السماء كطائر بجناحين حاملاً معه صرته تاركًا شوارع القدس لمن ضاق به. بعض الشبان الملثمين قالوا إنهم رأوا جنود الاحتلال يعتقلونه في سيارة للجيش الإسرائيلي، أخذوه ولم يعد.

قليلون من الناس عرفوا اسمه الحقيقي (أبو حسن شاهين)، فقد عرفوه بلقبه المشهور (أبو حسن بُلُّل)، أو (بُلُّل) حاف دون أية ألقاب

أخرى. تلك الكلمة (بُلُّل) يطلقها الناس على من كان مهملاً في ثيابه، وشعره، ومنظره. لم يعد يعرف الناس هل أطلقوا عليه هذا اللقب لأنه رث الثياب والشعر، أم أنهم يطلقون ذلك الوصف على بعضهم نسبة إلى (أبو حسن) صاحب اللقب الأول لهذا الاسم.

لم يكن أبو حسن رجلاً أهبل أو أُميًّا، بل كان يجيد القراءة والكتابة. تراه يقف قرب بائعي الصحف يطالع عناوينها حتى يمل منه بائعها فيتركه ويذهب إلى غيره.

لم يترك أبو حسن شارعًا في القدس إلا وسار به، فهو يعرف كل أزقتها على الرغم من أن أصله من الخليل، من عائلة شاهين المعروفة. أكثر تواجده كان في شارع الواد، وباب العامود، وباب الساهرة.

شارع الواد كان مركزه الرئيس في مقهى أبو رباح أبو رجب في أسفل الشارع، وعندما أغلق المقهى وتحول إلى محل تجاري أصبح مقره في مقهى السنترال. وفي باب العامود كان يجلس قريبًا من بائع الكعك على بعد أمتار من عمير دعنا بائع الصحف، أما باب الساهرة، فقد كان مقره الليلي، حيث كان ينام أمام البريد المركزي، على قطعة كرتون يحملها معه، ويتخذ من صرته التي يحملها أينما سار وسادةً، أما عصاه فكان يهش بها الذباب عن رجليه المتورمتين اللتين ينزف منهما الدم، واللتين يخيّل إليك وأنت تنظر إليهما أن أحدًا مزقهما بسكين. كان يعاني من مرض في رجليه،

لا أحد يعرف سرهما، ولا أحد فكر في علاجه، فيكف يهتمون به وهو يلتحف السماء كل يوم وينام في شوارع القدس القديمة.

كان عفيف النفس، لا يسأل أحدًا شيئًا، لكن تجار البلد عرفوه، وعرفوا حاجته، فكانوا يكفونه السؤال.

وكثيرًا ما كان الأطفال يلحقون به ساخرين منه: بُلُّل.. بُلُّل.. بُلُّل...

كان يحاول إبعادهم عنه، لكن أنّى له ذلك، وهو لا يقدر على اللحاق بهم، فهو يكاد يمشي متمايلاً بعكازه الطويل الذي يشبه عصا الراعي.

وكان الأطفال، أو بعضهم، لا يحسب حسابًا له أو لعصاه، ولم يكن ينقذه سوى بعض المارة الذين يلحقون بالأطفال ويجبرونهم على تركه بحاله.

كان رواد المقهى يتسابقون لتقديم الشاي له تبركًا به وبدعواته، فهو مسكين، والمساكين دعواتهم مستجابة.

في فترة الغداء كان يمر على بعض التجار ملقيًا السلام:

- السلام عليكم.

وقبل أن يكمل سيره، يناديه أحدهم.

- أبو حسن تفضل. تعال شاركنا الغذاء.

فيرد عليه أبو حسن:

- شكرًا يا أخي، سبقتكم في الغذاء.

يقول ذلك على الرغم من أنه جائع لم يأكل شيئًا، وقد عرفوا طبعه فيرد عليه أحدهم:

- أبو حسن تعال.. عاوزينك.

يدخل أبو حسن حاملاً صرته التي لا تفارقه، فيسأله صاحب المحل:

- افتح الصرة. دعنا نرى ما لديك من أكل.

فيفتحها، فإذا فيها حبة بندورة قديمة وكسرة خبز ناشفة يعلم الله من أين جمعها.

ينظر إليه مشفقًا على حاله.

- أبو حسن... ما رأيك أن نشترك معك بالغداء. ضع أكلك معنا لنأكل معًا.

يضحك أبو حسن ويقول:

- إن كان كذلك، فلا مانع.

أبو حسن اختفى. لم يعد موجودًا. لقد حاول سرحان أن يسأل عنه كل الناس، لكنه أبدًا لم يعرف عنه سوى الأقوال المتضاربة التي سمعها عنه.

اختفى أبو حسن بُلَّل. مات أبو حسن شاهين. هاجر ابن القدس المسكين. أصبح ذكرى من ذكريات البلدة القديمة، وحق لشوارعها أن تفتقده وتحزن عليه. هل يجب على القدس أن تحن للكبار فقط؟ أليس

للمساكين والمقطوعين والمظلومين مكان في قلبها؟ ألم تطأ أقدامهم شوارعها؟ يكفي أنه أحبها من كل قلبه، ونام في شوارعها، وتحمل ظلم بعض أهلها، وسخريتهم وشتائمهم.

أبو حسن شاهين (بُلُّل) شكل تراثًا للقدس، ومعلمًا من معالمها القديمة. كان بذقنه الطويلة، وعصاه التي يهش بها الذباب عن قدميه ويتعكز عليها، وملابسه الممزقة، وصرته التي لا تفارقه، مثالاً للفلسطيني المسكين المقهور، لكن المتمسك بالقدس والعاشق لها.

(١٦)

عامان مرّا على وجود سرحان في القدس. انتهت الفيزا الممنوحة له وللعائلة. وصلته رسائل كثيرة تطالبه بالرحيل، لكنه أهملها جميعها. كان وعائلته يتحاشون نقاط التفتيش، لهذا حشروا أنفسهم في القدس، خصوصًا حسن الذي أصبح عمره ١٦ عامًا، ولا يسمح له الجيش بتجاوز أي حاجز تفتيش دون بطاقة هوية. وجوده في البيت معظم الوقت أتعبه، وإذا نجح في الهروب من حواجز التفتيش الفجائية لفترة من الوقت، فلن يستطيع فعل ذلك بشكل دائم.

اليوم أوقفت سيارة للجيش إلهام مع أولادها وهي في الطريق إلى بيت أختها، واعتقلوا حسن لأنه لا يحمل بطاقة هوية. فشلت كل محاولات إلهام إقناعهم أنه ابنها، وأنها ستصدر له بطاقة، فالجيش أصلاً يطارد الشبان بشكل خاص لأنه يرى فيهم شبان الحجارة الذين يلقون عليهم الحجارة ويحرقون إطارات السيارات. اتصلت إلهام بسرحان في المطعم:

- سرحان الحقْ.. اعتقلوا حسن.

– ماذا؟ أين؟ متى؟ لماذا؟

– أخذه الجيش قبل قليل قرب مفرق عناتا على الشارع الرئيس للقدس. وضعوه في الجيب بعد أن قيدوه وذهبوا، لأنه لا يحمل بطاقة هوية.

– هل قالوا لك إلى أين؟

– هددوني وشتموني. إنهم مجرمون. أعتقد أنهم أخذوه إلى المسكوبية.

قال سرحان إلى الطباخ الذي يعمل لديه إنه مضطر إلى مغادرة المطعم، وشرح له الأمر.

اتصل سرحان بأخيه عدنان وأعلمه بالخبر، فقال له عدنان:

– أين أنت الآن؟

– أنا في المطعم.

– سأنتظرك في السيارة قرب المصرارة. اطلع بالسرفيس إلى باب العامود، وانزل قرب المصرارة. سأتصل بك هناك. سأتحرك الآن من المحل. لا تذهب لوحدك. لا تنس أن بطاقتك قديمة وقد يصادرونها. اتصلْ بالمحامي وأخبره بما حصل.

اتصل سرحان بالمحامي وهو في طريقه إلى الاتجاه الآخر من الشارع ليستقل إحدى سيارات السرفيس إلى القدس. السيارة مع إلهام ولا يستطيع التحرك بسرعة، لكن السرفيس إلى باب العامود ليس بطيئًا.

رفعت سكرتيرة المحامي عزرا السماعة:

- ألو.. مكتب عزرا.

- ألو.. أنا سرحان. هل أستطيع التحدث مع عزرا؟

- عزرا مشغول لبعض الوقت.

- أمر مهم. أرجو أن تخبريه أنهم اعتقلوا ابني حسن عند حاجز تفتيش لأنه بدون بطاقة هوية.

- حسنًا.. سأبلغه حالما ينهي اجتماعه.

كان سرحان قلقًا وهو جالس في سيارة السرفيس متوجهًا إلى القدس.

(آخ يا حسن، أنا السبب! أنا الذي وضعتكم في هذا المأزق! لكن ما الجريمة التي ارتكبتها؟

طالب مجتهد لا يشارك في أية أعمال مقاومة، يقضي معظم وقته في البيت خوفًا من حواجز التفتيش! لماذا عليه أن يعاني ما يعانيه؟ أليس من حقه أن ينعم في وطنه ويعيش كبقية أطفال العالم؟ لماذا يحرمونه أن يكون حتى مثل أطفالهم الذين يعيشون في المستوطنات التي بنوها فوق أراضينا؟ إنها العنصرية إنه الظلم.)

بعد وصوله المصرارة اتصل بأخيه عدنان، فأشار إليه أين ينتظره، ومن هناك توجها معًا في سيارة عدنان إلى المسكوبية.

قال له أخوه قبل وصولهما:

– لا تنفعل ولا تقلق، معظم الشباب في فلسطين يتعرضون للاعتقال. حسن أصبح شابًّا وعليك الاعتماد عليه.

قال له سرحان وهو منفعل:

– ولكنه صغير يا عدنان.

– هدّئ من روعك يا سرحان. سيخرج إن شاء الله. كن صبورًا.

وصلوا المسكوبية. أبقيا السيارة في الخارج، وتوجها سيرًا إلى الداخل، وقبل تجاوز الحراس، رن جرس هاتفه؛ المحامي عزرا على الخط.

– ألو.. سرحان، يؤسفني ما حصل مع ابنك. لقد اتصلت بالمسكوبية اليوم وأعلمتهم أنني محاميه. قالوا لي إنهم لن يفرجوا عنه إلا بعد يومين (٤٨ ساعة)، لذلك لا فائدة من التوجه إلى هناك.

– ماذا تقول؟ لماذا؟ بأي ذنب؟ إنه...

– سرحان أنت محامي وتفهم القوانين. يحق لهم احتجاز المواطنين في القدس لمدة ٤٨ ساعة للتحقيق.

– ولكنه ليس مجرمًا، وهذا قانون المجرمين.

– سرحان لا تقلق. بعد ٤٨ ساعة سيفرجون عنه بالكفالة لأنه غير مواطن، لكن علينا الآن التحرك نحو المحكمة لاستعادة بطاقة الهوية. سأراك غدًا لإعداد الأوراق اللازمة.

أغلق سرحان الخط مع عزرا، وأخبر أخاه عدنان بأن المحامي يقول إنهم لن يفرجوا عنه إلا بعد ٤٨ ساعة.

- دعنا ندخل نسألهم.

- إلى أين سنذهب؟

- إلى غرفة رقم أربعة.

- وكيف عرفت؟

- الذين يعتقلهم الجيش يسلمون هناك.

- حسنًا هيا.

تجاوزا نقطة الحراسة بعد أن أبرزا بطاقتيهما وتعرضا للتفتيش، ونزلا إلى غرفة أربعة التي تقع في الجهة الخلفية من المكاتب الأولى. وصلا الغرفة. كانت تعج بالمخابرات بلباس مدني. نظر إليهما أحدهم وقال:

- من فيكما سرحان ؟

تقدم سرحان وقال:

- أنا سرحان.

- لماذا لم تغادر القدس حتى الآن؟

- لماذا أغادرها؟ أنا هنا في وطني، وقضيتي أمام محاكمكم.

- ابنك ليس لديه بطاقة هوية، وهو مخالف لقوانين السياحة، لذلك سنقدمه إلى المحكمة بعد يومين.

تدخل عدنان سائلاً:

- هل يمكن لنا رؤيته؟

- اطمئنوا.. لن يصيبه مكروه.

- لكن ما الجريمة التي ارتكبها؟

- لا يحمل بطاقة هوية. ليس معه فيزا. كان عليه مغادرة القدس من ٢١ شهرًا تقريبًا.

- ولكنه يعيش مع والديه.

- ما اسمك أنت؟

- عدنان. أنا أخوه.

- سيد عدنان لا فائدة من الحديث. سيبقى ضيفًا لدينا ٤٨ ساعة.

خرج سرحان وأخوه عدنان من المسكوبية غاضبين.

كان سرحان متوتر الأعصاب، يلعن إسرائيل وحكومة إسرائيل، ويتساءل:

- متى سنرتاح من إسرائيل وظلمها؟

فرد عليه عدنان:

- يبدو أننا لن نرتاح منهم. علينا التعود على هذا الجار الذي فرض علينا نفسه بالقوة.

- ترى هل سيضربونه الآن؟

– أنسيت يا سرحان وأنت في عمره كيف كنت تشارك في المظاهرات؟ أنسيت عندما كنت في المظاهرة التي استشهد فيها عبد الله الحواس العام ١٩٧٦ في البلدة القديمة؟ أعتقد أنك كنت في سن حسن أو قريبًا منه. أنسيت عندما تعرضت للضرب من أحد الجنود لأنك كنت ترفع العلم الفلسطيني؟

– لكني كنت أكثر تحملاً منه.

– يا سلام.. لماذا؟ كم مرة قال لك أبوك: "دعك من المظاهرات يا سرحان، أخاف أن يقتلوك!". لكنك لم تسمع له. كان الحماس يملَؤُكَ، فلماذا تخاف على حسن؟ دعه يجرب معنى الاحتلال. دعه يكتشف بنفسه قذارة المحتلين. إن لم يكتوِ أبناؤك بنيران الاحتلال فلن يقاوموه لمجرد أن آباءهم عانوا منه.

(١٧)

كان حسن قد وصل إلى المسكوبية في سيارة الجيش التي نقلته إلى هناك بعد تعرضه لبعض اللكمات. كانوا يسألونه خلال الطريق:

- كم مرة ضربت الحجارة على الجيش؟

- أنا لا أضرب الحجارة على الجيش.

- كذاب. (أتا ممزير).

فجأة بعد أن تحدث الجنود معًا بالعبرية سأله أحدهم:

- أنت اسمك خسن؟ (اليهود يلفظون الحاء خاء).

- نعم.. حسن.

- خَسَن نصر الله؟ ها ها .

- لا.. ليس حسن نصر الله.

- خسن الخرة؟

احمر وجه حسن ورد بغضب:

- لا.. مش خرة.

صوبوا سلاحهم إلى صدره:

- اعترف أنك ضربت الجيش بالحجارة.

- لم أضرب أحدًا بالحجارة.

- طيب من الذي يضرب؟

- لا أعرف.

- كذاب.

- أنا لا أكذب.

- أنت كذاب. بن زنا.

فجأة هب فيهم حسن. لم يدر كيف تجرأ على الحديث:

- اخرسوا. ما هذا الكلام؟ الجيش يجب أن يحترم الناس. لا يقتلهم.

- غضب أحدهم، وصفعه على وجهه، ثم صرخ به:

- يا كلب.. لا تصرخ فينا.

كان حسن مقيد اليدين لا يستطيع عمل شيء سوى تحمل الصفعات، وماذا باستطاعته أن يفعل حتى لو فكوا قيوده؟ إنهم مدججون بالسلاح. كانوا خمسة جنود، أحدهم سائق، وبجانبه أحد الجنود وفي الخلف ثلاثة وهو بينهم.

قال له الجندي الجالس في المقعد الأول بجانب السائق:

- هل أنت مع فتخ؟

- لا.. لست مع فتح.

- إذًا أنت خماس؟

- لا.. لست مع حماس.

- مع الجهاد؟

- لا.. لست مع أحد.

فقال الجالس بجانبه:

- إذًا أنت معانا. اشتغل معانا.

- أنا لست جاسوسًا. أنا لست مع أحد.

- لا.. لا ينفع. أنت مع خماس أو معانا؟

سكت.. لم يتكلم.

من الصعب أن تكون مستقلاً في زمن الاحتلال، فإما أن تكون مع الاحتلال أو المقاومة، لا مكان بينهما.

وصل الجنود إلى المسكوبية، فأنزلوا حسن منها وساقوه إلى غرفة رقم أربعة.

حسن ليس معه بطاقة هوية.

تركه الجنود وغادروا المكان بحثًا عن صيد جديد.

تقدم منه أحد أفراد المخابرات ويدعى الكابتن يوسي. حدق فيه دون أن يبتسم أو ترف له جفون. كان أشقر الشعر، طويلاً، عيونه زرقاء.

قال لحسن:

- اسمك؟

- حسن.

جلس يوسي خلف مكتبه. بدأ يضرب على أزرار الحاسوب. بعد لحظات سأله:

- بطاقة الهوية؟

- ليس عندي بطاقة بعد.

- لماذا؟

- ننتظر المحكمة.

عاد يوسي يدقق في شاشة الحاسوب، ويضرب على الأزرار، فجأة قال له:

- أبوك المحامي سرحان وأمك إلهام؟

- نعم.

- ولك خال مسجون عندنا اسمه أحمد؟

- صحيح.

- وأبوك الآن يبيع الفلافل.

هز حسن رأسه.

فقال له يوسي مستفزًا:

– أليس عيبًا على أبيك أن يبيع الفلافل في بيت حنينا بعد أن كان محاميًا كبيرًا في أمريكا؟ ما له ولهذه البهدلة!

– لا أعرف. نريد العودة إلى القدس، إلى بلدنا.

– بلدك أمريكا يا حسن. ألم تولد هناك؟

– نعم.

– ودرست هناك؟

– نعم.

– ولديك هناك أصحاب وأصدقاء؟

صمت ثم قال:

– وصديقات؟

هز حسن رأسه.

سأله يوسي بهدوء:

– هل تحب أن أفرج عنك الآن؟

– نعم.. أنا لم أرتكب أية جريمة.

– بشرط؟

– ما هو؟

– تعمل معنا.

– ماذا تقصد؟

– أن تدلّنا على من يلقي الحجارة على الجيش، ومن يحرضون الناس من خماس، والجهاد، والجبهة، وكتائب الأقصى.

– ولكن لا أعرف أحدًا.

– عندما تعرف تخبرنا.

– لا.. لا أريد أن أكون جاسوسًا لكم.

– من قال إنك جاسوس؟ أن تدلنا على المخربين فقط ونحن نساعدك نصدر لك بطاقة هوية.

– لا.. لا أريد.

– حسنًا.. سأرسلك الآن إلى السجن.

نادى يوسي أحد الموظفين لديه، وأمره أن ينقل حسن إلى سجن المسكوبية لمدة ٤٨ ساعة.

سأل حسن:

– لما تسجنوني؟

– لأنك مخرب.

– مخرب؟ أنا لم أفعل شيئًا.

فردّ عليه الموظف:

– اخرس. عربي وسخ.

سكت حسن، ولم ينطق بحرف بعدها.

كادت دموعه تنزل، لكنه حبسها، فقد خاف أن يحسبوه جبانًا.

ساقه الموظف أمامه مقيدًا إلى بناية السجن التي تبعد حوالي خمسين مترًا عن غرفة المخابرات، وهناك كان الباب الحديدي مغلقًا. رن جرس الباب، ففتح أحد السجانين فوهة صغيرة في أعلى الباب. نظر منها فرأى حسن مقيدًا ومعه أحد موظفي المخابرات. فتح لهما الباب. قدم رجل المخابرات أوراق اعتقال حسن، وقال للسجان إنه معتقل لمدة ٤٨ ساعة. ثم غادر السجن عائدًا إلى عمله.

هناك وضعوه في غرفة صغيرة بجانب مكتب السجن. كانت أصوات فتح الأبواب وإغلاقها وصراخ السجانين تصم أذنيه وترعبه.

بعد لحظات، أخرجوه من زنزانته الانفرادية. أخذوا كل ما في جيبه مع حزامه، وبعض النقود. طلبوا منه التوقيع على الورقة بعد أن سألوه عن اسمه وعنوانه، ثم قاده أحدهم بخشونة إلى غرفة السجناء. فتح الباب، ودفعه إلى داخلها.

دخل حسن الغرفة القديمة. كان السجناء يتناثرون هنا وهناك. كلهم من اليهود، ما عدا سجين واحد عربي متهم بالسطو المسلح. كان السجناء اليهود قد نظروا إليه وبدؤوا يسألونه بالعبرية:

- ما شم خا؟ (ما اسمك؟)

- لماذا أنت هنا؟

لم يرد على إجاباتهم على الرغم من أنه يعرف بعض الكلمات العبرية من المدرسة، لكنه يكرهها.. يكره تلك اللغة، واليوم تحديدًا أصبح لا يطيق سماعها.

ذهب إلى أحد الأسرة الفارغة، وكان سريرًا علويا، وصعد إليه ملقيًا نفسه عليه.

اقترب منه سجين عربي، قال له:

- أنا سعد من رأس العامود.

- وأنا حسن من شعفاط.

بعد أن شرح له أوضاع المسكوبية، طلب منه أن لا يختلط بالسجناء اليهود، فهم يتآمرون عليه.

بدأ حسن يفكر في وضعه الجديد.

(أنا الآن في المسكوبية. أبي وأمي قلقان علي الآن. لا بد أن أمي تبكي وتحمّل أبي المسؤولية على مواجهة هذا الوضع الصعب. يجب أن أثبت له أنني رجل يعتمد عليه. إنه امتحان صعب، لكن يجب أن أتجاوزه. يجب ألا أنهزم. إنهم لا يفرقون بين فلسطيني وآخر. يريدوننا كلنا ترك الوطن. أنا مع أبي لن أتركهم يهزموننا.)

جاء الليل وسرحان عابس الوجه ينظر إلى إلهام التي تبكي على ابنها لا يدري ماذا يفعل.

كان مع عبير وبلال يستمعون إلى نشرة الأخبار، عندما أعلن المذيع خبر اعتقال الأمريكي حسن لأنه موجود في إسرائيل بدون فيزا.

هز رأسه! أمريكي! فيزا! حتى الإعلام العربي ليس في مستوى التحدي. من قال لهم إنه أمريكي؟ لماذا لم يقولوا مواطن فلسطيني تحاول إسرائيل تهجيره بالقوة. ترى كيف حسن الآن؟ ماذا أكل؟ أرجو ألا يعتدي عليه أحد.

ألقى حسن رأسه على وسادته المهترئة لعله ينام في هذه الغرفة التي رائحتها تزكم الأنوف.

ظل شارد الفكر يفكر بوالديه، وبأخته عبير، وببلال، وبأصدقائه، وبصديقه رشيد، وبجولي، وبميسون السورية والوردة التي قدمتها له قبل سفره! هل ترى سيلتقي بها يومًا ما؟ كيف وهو الآن في وطن يخاف أن يتحرك في شوارعه. هل ظلت ميسون تتذكره؟ هل لديها وردة أخرى تستقبله بها حين عودته أم أنستها الأيام حسن؟ منذ مدة لم تراسله، كأنها نسيته. انشغلت عنه، ولربما الدراسة أخذت كل وقتها.

ظل حسن سابحًا في تفكيره حتى غط في نوم عميق. نام في ثيابه. لا يوجد هنا غيارات، ولا صابون، ولا منشفة. الحمامات وسخة، ومقرفة، حتى وجوه نزلاء الغرفة مرعبة، يتبادلون الحديث بالعبرية، ويضحكون كأنهم يضحكون عليه.

كان يغط في نوم عميق عندما شعر بشيء يسير على جسمه. استيقظ مذعورًا ليرى أحد السجناء اليهود يحاول اغتصابه. قاوم بقوة، لكن تكاتف عليه شابان يهوديان آخران مهددين إياه بالقتل إن تحرك، ومشهرين شفراتهم الحادة. قالا له بالعبرية:

- لا تتحرك. عشرة دقائق فقط.

وبدأ أحدهم يتحسس مؤخرته. ارتعب حسن. أحس كأن مصائب العالم انهالت عليه. حاول المقاومة للتخلص من بين أيديهم. فجأة استيقظ بعض السجناء من نومهم، لكن لم يتحرك أحد لمساعدته حتى العربي الذي يبدو أنه خاف منهم، كأنهم كلهم يتآمرون عليه. فجأة وقف أحد الرجال الذي سمع صوت حسن يستنجد بالعربية فعرف أنه عربي. هجم عليهم كالوحش الكاسر يضرب شمالاً ويمينًا ما أفسح المجال لحسن للدفاع عن نفسه. نزل إلى الأرض وشارك في معركة حامية مع اليهود الثلاثة. قال الرجل لحسن: اضرب ولا تخف.

لحظات كان السجانون على باب الغرفة بعد أن سمعوا الصراخ والضرب، فهرب اليهود إلى أسرتهم بسرعة وغطوا أنفسهم بالبطانيات كأنهم في سبات عميق. كان الرجل وحسن ينزفان دمًا. حسن أصيب بضربة بآلة حادة في جبينه، أما الرجل المجهول بالنسبة لحسن فقد أصيب بلكمات في وجهه أسالت الدم من أنفه.

سألهما أحد السجانين:

- ماذا جرى يا ملاعين؟ تتشاجران؟

فردّا عليه معًا:

- لا.. لم نتشاجر.

نظر إلى الجميع وقال لهما:

- من ضربكما؟

فقال حسن:

- هجم علينا...

قاطعه الرجل:

- لقد وقعت عن السرير.

فقال له السجان:

- اخرس. دعه يكمل. من هم؟

- لم أنتبه. كنت نائمًا والغرفة معتمة.

أخذهما السجان إلى العلاج الطارئ في السجن، وخلال إجراء الإسعافات اللازمة لهما عرف حسن أن الرجل يدعى عزمي.

بعد ذلك نقلوهما إلى زنازين انفرادية، لكنهم وضعوا الرجل وحسن في زنزانة واحدة بسرير واحد. كان عليهما أن يتقاسما السرير، أو ينام أحدهما على الأرض بجانب المرحاض.

كانت فرصة لحسن ليتعرف إلى هذا المنقذ الذي نزل عليه من السماء.

قال له حسن:

- شكرًا على وقوفك بجانبي.

- لا تشكرني على واجبي يا بني. أنا عزمي، وأنت؟

- أنا حسن. طالب بالكلية الإبراهيمية. أنهيت الصف العاشر. كنت أعيش مع والدي في الولايات المتحدة، لكنه قرر العودة إلى القدس. والدي محام ترك المحاماة وعاد إلى القدس.

- وماذا يعمل الآن؟

هز حسن رأسه:

- يبيع الحمص والفلافل في مطعم أبو حسن في بيت حنينا.

- ولماذا تخجل إنه أب رائع ضحى بوظيفته وعمله من أجل إعادتكم. لكن قل لي: من أين جئت؟ أنا لم أرك يوم أمس.

- أحضروني في ساعة متأخرة من الليل. كان الجميع نيامًا ما عدا الثلاثة الذين هجموا علينا. كانوا يحاولون...

- لا تكمل. لا تخف. ألست رجلاً؟

- بلى.

- إذًا كن شجاعًا، ودافع دائما عن نفسك. هؤلاء السفلة لن ينتصروا علينا.

– لماذا بقي العربي الثاني بعيدًا ولم يساعدك؟

– خاف منهم. ألا ترى كيف تفظّع إسرائيل بنا وتقصف لبنان ودول عربية بجيوشها. تتجاهل المعتدي، ولا تساعدهم، وتتفرج عليهم؟

– صحيح، كما حصل في حرب تموز قبل عام عندما اعتدت إسرائيل على لبنان.

– تمام يا حسن. ٣٣ يومًا وإسرائيل تقصف لبنان ودول عربية تتفرج. صح؟

– صح. إذًا هذه الدول مثل هذا الرجل العربي الذي رأى كيف يهجمون علينا ولم يتحرك. خسارة. ليت كل العرب مثلك يا عم عزمي.

– وليت كل الفلسطينيين مثل أبيك سرحان، يعودون ليبيعوا الفلافل في وطنهم.

– ابتسم سرحان وقال له:

– لقد أعدت لي ثقتي بنفسي بعد أن انهارت.

– لا تقل ذلك. كن دائمًا صبورًا، ولا تحكم على النتائج قبل نهايتها. أنت بطل ككل الأبطال. لكن لماذا لم تطلب مساعدة القنصلية الأمريكية؟

ضحك حسن باستهزاء:

– القنصلية لخدمة اليهود. كل شيء ضد إسرائيل تدعي أنها لا تتدخل به، وتطلب منا أن نعود لأمريكا.

– طبعًا، لكن لو اشتكى مواطن عربي يحمل الجنسية الأمريكية ضد حكومته لنشروا عنها أخبارًا ولقاءات صحفية، ولتباكوا على الحرية المفقودة فيها.

– هناك سؤال يحيرني يا عم عزمي.

– ما هو يا حسن؟

– لماذا لم تخبرهم عن الذين اعتدوا علينا؟

– خفت عليك من اللاحق؛ فلو وشيت بهم، فإن هؤلاء الكلاب سيعدونك في قوانين السجن (ملشان) بالعبرية، أي متعاون مع الإدارة، وإذا بقيت بالسجن لفترة غير محددة فقد تتعرض للضرب، والاعتداء من السجناء اليهود. ولو أعلمت الإدارة، فلا أحد يضمن أنها ستقف معك؛ فقد تقف ضدك لأنك عربي وتنفي عنهم التهمة. كلهم متآمرون علينا حتى إدارة السجن.

– هل أستطيع أن أسألك لماذا أنت هنا؟

– لا أعرف يا حسن. لقد اعتقلوني قبل منتصف الليل بقليل. ربما سأتحول إلى السجن الإداري، يعني سجين سياسي، يسجن بدون محاكمة.

– إنه ظلم.

- وهل تعتقد أنه يوجد عدل في دولة قامت على اغتصاب بلدنا وأرضنا؟ والآن دعنا ننام حتى الصباح. نحن الآن قريبان من الفجر. ما رأيك أن نصلي وننام؟

- حسنًا.

- إذًا إلى الوضوء.

(١٨)

استيقظت إلهام مذعورة من نومها بجانب سرحان.

- ما الأمر؟

- بسم الله الرحمن الرحيم. حسن.. حسن ابني.

- ماذا حصل؟

- حلمت بأن ذئبًا يلاحقه، وهو يهرب منه. اقترب منه الذئب وعضه في قدمه، فبدأ يصرخ. انتبه له أحد الرجال، فهجم على الذئب بعصاه حتى هشمه، وعندما اقتربت منه لأضمه إلى صدري طار من أمامي، واستيقظت.

- الحمد لله أنه أفلت من فم الذئب.

- أنا خائفة على حسن. ماذا يفعلون به الآن؟ ماذا لو رفضوا منحه بطاقة الهوية؟

- سنرى ما يمكن عمله. لم يبق إلا يوم واحد. اصبري. لا مجال لنا إلا الصبر. إنها ضريبة الوطن. لسنا أول من يُسجن ابنهم.

– ولكن الآخرين يسجنون لأنهم قاوموا الجيش، أما حسن فلم يفعل شيئًا.

– يا أم حسن.. ابنك قاوم حكومة إسرائيل. قاوم قرارها باعتباره سائحًا. قاوم قرارها بطردها لنا. أصر على أن يعيش في وطنه. المقاومة ليست فقط إطلاق الرصاص. كثيرون أطلقوا الرصاص على الجيش وعادوا واستسلموا. المقاومة هي الصمود في أرض الوطن والإصرار على البقاء فيه.

– لماذا لا نرسله ليكمل دراسته في أمريكا؟

– وهل عدنا لكي نعيده إلى هناك؟ ألم نعد من أجل أولادنا؟

– ولكنه الآن في السجن.

– أنا أتألم مثلك عليه، لكني واثق أنها محنة، وستمر وسيخرج منتصرًا.

– اللهم احفظه يا رب، وأعده سالمًا. اللهم أحطه بعنايتك.

صمتت ثم قالت:

– ما الساعة الآن؟

– الخامسة صباحًا.

– دعنا نتوضأ، ونصلي، وندعو الله أن يحميه.

(١٩)

بعد يومين أفرجت المحكمة عن حسن بكفالة مالية لحين انتهاء المحكمة التي ستبث في أحقية والديه في الإقامة في القدس، فقد رفع المحامي عزرا قضية سرحان والعائلة إلى المحكمة، وطالب بإعادة بطاقاتهم، وقدم كافة الأوراق التي تثبت أنهم يسكنون في القدس منذ أكثر من عامين، وقد حددت جلسة المحكمة بعد شهرين. كان ذلك في مطلع السنة الدراسية الجديدة عام ٢٠٠٧، وكان المحامي عزرا قد طمأنه أن القرار سيكون لصالحة، فهو يسكن في القدس ويعمل في القدس، يدفع الضرائب، والتأمين، ولديه سجلات رسمية حول أولاده الذين يدرسون في القدس. لكن قرار المحكمة كان مفاجئًا: رفضُ الطلب، واعتبار سرحان وزوجته مقيمين بصورة غير شرعية في القدس.

فوجئ الجميع بالقرار. قال سرحان للمحامي:

– أرأيت؟ ألم أقل لك إنها محاكم صورية؟ أين العدالة الإنسانية في إسرائيل؟ ألا يكفي ما طردتم من لاجئين.

– سيد سرحان.. أنا متضامن معك، وسوف أستأنف القرار، لكن الأمر ليس بيدي.

– هذا ليس قرارًا قضائيًّا، إنه قرار سياسي.

صمت المحامي ثم هز رأسه:

– صحيح.. نحن في دولة تتخذ قراراتها بالنسبة للعرب حسب مصالحها السياسية.

– أليس غريبًا أن نكون أنا وأنت زملاء مهنة في أمريكا ويرفضون في إسرائيل أن أكون جارًا لك على الرغم من أنني مولود هنا باعترافهم.

غادر سرحان وزوجته قاعة المحكمة غاضبين.

قالت له:

– هذه ليست محكمة. إنها مسلخ لسلخ الناس.

– يريدون طردنا بقانونهم العنصري. نحن الذين ولدنا في القدس أبًا عن جدٍّ يصدرون قراراتهم بترحيلنا، واليهود الذين ولدوا في روسيا منذ آلاف السنين يسكنوهم مكاننا! أية جريمة إنسانية هذه؟

فقالت له إلهام:

– يا ليتهم يتشتتون كما تشتتوا قديمًا، وإلى الأبد.

– اللهم اسمع منها.. يا رب.

– اللهم انصر المجاهدين الأبطال، وثبت أقدامهم.

صمتت لحظة، سألته:

- بماذا تفكر الآن؟

- سنستأنف القرار ونمارس عملنا كالمعتاد. المهم أن لا يتعرض حسن لتوقيف من الجيش، على الأقل الآن لديه كفالة حتى انتهاء المحاكمة. وبما أننا استأنفنا القرار فالكفالة سارية المفعول. يجب أن لا نستسلم. لن نرحل من القدس إلا محمولين بالقوة بالسلاسل. إنه التحدي يا إلهام. لن ننهزم، وكي ننتصر علينا بالصبر. ألم أقل لك إننا نجسد قضية فلسطين؟

- سأتصل بأمين لأخبره عن القرار ليكتب عنه خبرًا.

- لا يا إلهام. الخبر بهذه الطريقة في مصلحتهم، نريد خبرًا لصالحنا.

- كيف؟ لم أفهم.

- علينا القيام بنشاط ما نؤكد فيه على حقنا بأرضنا وتمسكنا بها ورفض قرار المحكمة الإسرائيلية حينها يستطيع نشره ليكون صداه أكبر.

- وبماذا تفكر؟

- أفكر بالاتصال بأبناء القدس الذين سحبت إسرائيل بطاقاتهم في الرام وعناتا والعيزرية وغيرها إضافة إلى العائدين من بلدان الاغتراب مثلنا، لكي نقوم بالتظاهر أمام القنصلية الأمريكية في القدس الشرقية، وهي أيضًا قريبة من مكتب الداخلية الإسرائيلية، وندعو لها الصحافة، وكل وسائل الإعلام.

- فكرة رائعة.

- أبناء فلسطين لن يفرطوا بوطنهم. لن يخدعونا بالجنسية الأمريكية. إنها جواز سفر فقط، جواز سفر أمريكي حصلنا عليه لنستطيع بوساطته زيارة أشقائنا في الدول العربية لأنهم يفتحون لنا مطاراتهم عندما نأتيهم كأمريكيين، ويغلقونها في وجوهنا عندما ندخلها أشقاء يحملون لهم محبتهم.

- إنها مهزلة. مهازل العرب تستفيد منها إسرائيل.

- إسرائيل تجمع اليهود من كل العالم إليها، والعرب يطردون مواطنيهم. ألا تسمعين بالمواطنين الـ(بدون) في بعض الدول العربية؟ يعيشون منذ مئات السنين، ويرفضون منحهم الجنسية، كأنهم أعداؤهم! كأنهم ليسوا بشرًا! آخ يا إلهام.. لا ندري لمن نشكو حالنا؟

- إلى الله، إليه وحده.

- لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله.

(٢٠)

بعد أسبوع كان المتظاهرون الفلسطينيون يرفعون شعارات باللغات العربية والعبرية والإنجليزية يرفضون قرارات ترحيلهم عن وطنهم، ويصرون على البقاء في بلد الأجداد.

تجمعوا بسلام أمام القنصلية الأمريكية، حيث تقع على تقاطع عدة طرق كلها ضيقة، وبسبب كثرة المتظاهرين وعائلاتهم وأبنائهم والصحافيين، فقد توقفت حركة السير. كانت الشرطة والجيش تملأ الشوارع. حاولت تفريق المسيرة السلمية، ولكن المشاركين أصروا على إعلان صوتهم.

كانت كاميرات الصحافة تسلط عدساتها على الأطفال وعلى الشعارات، وتجري الحوارات مع المشاركين.

قال أحدهم للصحافيين:

- قرار الداخلية الإسرائيلية مهزلة! لا يليق بدولة تدعي العدالة وسيادة القانون. كيف يمكن لدولة تمنح سكان القدس بطاقة رسمية

تعترف بهم كمواطنين أينما سكنوا أو درسوا ثم تعود بعد أكثر من ثلاثين سنة لتقول لهم: انتهت إقامتكم ارحلوا عن بلدكم؟

بدأت الشرطة بدفع المشاركين بالقوة وإبعادهم عن الشارع العام، ثم هجمت عليهم بالخيالة، وبدأت تنهال عليهم بالضرب، فيما كانت الفضائيات تصور المشهد التاريخي.

كان سرحان يرفع شعارًا استفز الشرطة ثم هجم عليه بعض أفرادها.

"القضاء الإسرائيلي غير عادل وعنصري!"

أخذوا منه الشعار بالقوة وطرحوه أرضًا.

صرخ بهم أولاده. قال حسن:

- اتركوه يا كلاب.

صاحت عبير:

- بابا حبيبي.

وقفت إلهام تدفع المهاجمين عن زوجها فدفعها أحد الجنود، وسقطت على الأرض، فجاءت إحدى المتظاهرات لتساعدها على الوقوف.

هجم بلال على أمه يبكي: "ماما.. ماما"، ثم انسل من بين الأرجل إلى الجندي الذي دفعها فضربه بقدمه صارخًا به:

- أنت تيس.. لماذا تضرب ماما؟

نظر إليه الجندي، وبحقد كامن في قلبه ضربه بحذائه بقوة فسقط على الأرض متدحرجًا ككرة قدم، كل هذا فيما كانت عدسة الجزيرة تصور الحدث. سقط بلال على الأرض يصرخ من الألم. تلقفه حسن صارخًا:

- بلال!

اقتربت إلهام تصرخ:

- يا كلاب.. تضربون الأطفال.

حملته وانتقلت به مع الأولاد إلى المستشفى فيما كانت الشرطة والجيش قد فرقت المشاركين، واعتقل بعضهم ومنهم سرحان الذي لم يعرف بما جرى مع بلال.

نقل سرحان وعدة مواطنين آخرين إلى المسكوبية، حيث التقى بهم مسؤول قسم الشرطة هناك وأنذرهم إن أعادوا الكرة سيدخلهم السجن بتهمة الإخلال بالأمن والقانون، فقال له سرحان:

- أي قانون تريدوننا أن نحترم؟ قانون طردنا وترحيلنا؟

فقال لهم مسؤول القسم:

- هذه مسألة بينكم وبين الداخلية، تابعوها حسبما تريدون. أنا هنا يهمني الأمن في البلد.

- لاستتباب الأمن لا تظلموا الناس وتطردونهم.

اغتاظ المسؤول فقال:

– أعرف أنك محام يا سرحان. هذا ليست قاعة محكمة لترافع فيها. لقد عرضنا عليكم سابقًا الجنسية الإسرائيلية فرفضتم.

فرد عليه أحد المواطنين من سكان الرام ويدعى كايد:

– أنا موافق. أعطوني الجنسية الإسرائيلية إن كان هذا الحل لبقائي في وطني.

فرد عليه ساخرًا:

– ألم تسمع بأغنية أم كلثوم (فات الميعاد)؟ فات الميعاد يا حبيبي.

فقال له كايد:

– في الماضي عرضتم علينا الجنسية الإسرائيلية لتلغوا الشخصية العربية الفلسطينية، واليوم بعد أن أصبحت الشخصية الفلسطينية رسمية وثابتة وتعترفون بها والفلسطينيون موجودون حتى في برلمانكم، أصبحتم تريدون طردنا بطرق أخرى. حتى الفلسطينيين الذين تعدونهم إسرائيليين تبحثون عن طريقة للتخلص منهم بالتأكيد على يهودية دولتكم. ألم تعرضوا على عرفات ضم منطقة المثلث مقابل أراض في القدس والضفة؟

اغتاظ المسؤول. هز رأسه من جديد وقال لهم:

– سأكتفي بالحديث بإنذار نهائي لكم.

نظرا إلى المسؤولين حوله وقال لهم: أطلقوا سراحهم.

عاد سرحان بعد ساعات إلى البيت دون أن يدري ما جرى لبلال. فوجئ به نائمًا وجبينه ملفوف بالشاش الأبيض.

- ماذا جرى؟ هل أصيب بلال؟

فقال له حسن:

- ضربه الجندي اليهودي.

- كيف ومتى؟

- عندما كنت تتعارك معهم.

- السفلة يدعون أننا نقتل الأطفال وهم أول القتلة.

شرح حسن لأبيه ما حصل، وطمأنته إلهام أن الجرح طفيف.

تقدم سرحان، وقبّل رأس ابنه، وتركه نائمًا. خرج من غرفة الأولاد ودموع الحزن على خديه.

قالت له عبير:

- لقد شاهدنا بالأخبار صورة المسيرة، ونقلوا الحوار معك، وأيضًا شاهدنا كيف ضرب الجندي بلال، لقد سجلنا لك النشرة لترى الصورة.

- حسنًا فعلتم دعوني أتابع الأخبار. يجب إرسال نسخ من الصور إلى الهيئات والمؤسسات الإنسانية.

فقالت إلهام:

- ونسخة إلى جامعة الدول العربية.

– جامعة الدول العربية ليست بحاجة إلى نسخة يا إلهام. لا بد أنهم يتابعون الأخبار ويسجلون الانتهاكات الإسرائيلية اليومية، وهل لهم من عمل سوى تسجيل الأحداث. إنهم يسجلونها. المهم الرد.. الرد على الانتهاكات.

الاتصالات التلفونية تنهال على سرحان بعد الإفراج عنه. المواطنون المتضررون من القرار الإسرائيلي حول سكان القدس يتصلون به يوميًّا، يسألونه عن الخطوة التالية. أصبح مرجعهم في قضية حقهم في وطنهم، كأنه السلطة الوطنية في غياب أي تحرك للسلطة أو رموزها.

إسرائيل تطبخ القدس على نار هادئة منذ احتلالها العام ١٩٦٧. لقد أحكمت القبض عليها من كل الاتجاهات. مستوطنات حول القدس شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، ومستوطنات داخل المنطقة العربية نفسها، وتغيير الشوارع، وفتح أنفاق لربط المستوطنات بعضها ببعض، حتى بريد القدس أصبح مركزًا لقوة دائمة من الشرطة والجيش.

أبناء القدس الجدد، الذين ولدوا في ثمانينيات القرن العشرين، لا يعرفون شيئًا عن القدس قبل العام ١٩٦٧، فقد تغيرت معالمها كثيرًا. إنها محاولات إسرائيل بتهويدها.

تصور أن جارك مستوطن يهودي متعصب، كل همه استفزازك، وإثارتك، والتنغيص عليك لكي تغادر البيت مجبرًا أو مطرودًا!

تـصور كيـف تكـون حيـاة أولادك حيـنما يكـون جـارهم عنـصريًّا يكرههم، ويتمنى لهم الموت، ولا يسمح حتى لأولاده أن يحادثوا أولادك بل يعلمهم كيف يكرهونهم، ويعودهم على البصق على جيرانهم.

تخيل كيف يكون مساؤك يوم الجمعة عندما يبدأ جارك المستوطن اليهودي مع مجموعة من اليهود المتطرفين بالتشويش عليك حياتك أثناء قيامهم بطقوس السبت، وكأن موسى قد أوصاهم أن يزعجوا جيرانهم!

أبناء القدس، خصوصًا أبناء البلدة القديمة، كالواقف على خط النار، لا يعرف الراحة. يده على الزناد. يتوقع الحرب كل ثانية، بل أسوأ من ذلك بكثير. فالجندي قد يخلفه جندي آخر. قد يمنح إجازة وقد تنتهي مدة خدمته، إلا هذا الساكن في البلدة القديمة للقدس المجاور لأحد المستوطنين، فهو دائم الخدمة، ودائم اليقظة. إنه جار يهودي متطرف عنصري حاقد، يهودي لا يريد العيش مع العرب بسلام ويؤمن بالتعايش، إنه يحلم بموتك، يريد طردك، يعلّم كل يوم أولاده كيف يحولون نهارك الهادئ إلى يوم حزين. فقد تخرج من البيت وتعود لتجد الزبالة أمام بيتك، وقد يلقون عليك ماء وسخًا، وقد يرمقونك بنظرات غريبة. المهم عندما يذهب المواطن الفلسطيني شاكيًا إلى الشرطة لا يصدقونه، فالتعليمات لديهم واضحة: إن لم يعجبك الوضع فارحل. فهم جاهزون لشراء البيت منك. إنهم يهود.

قال سرحان للصحافي أمين:

– يبدو أن معركتنا معهم طويلة؟

– إنها أطول مما نظن، لكنا لا نعرف متى تكون النهاية! ببساطة لأن النهاية بعيدة، أبعد من الطريق إلى الصين. المؤسف أنه كلما طالت الطريق تخلى كثيرون عن المقاومة، وصارت إسرائيل دولة في نظر بعض الناس يريد الفلسطينيون تدميرها.

– لم أتوقع أن نصل إلى تلك المرحلة يا أمين.

فقال أمين:

– يا أبا حسن.. إنها بداية التراجع، وليس نهايته.

– وماذا بقي لنا؟

– بقاؤنا في أرضنا. صمودنا فيها على الرغم من كل محاولات تغييرها. ما تفعله أنت يا أبا حسن أفضل من كل تلك الصواريخ التي تطلق عليهم. إنها معركة البقاء.

–هل أنت متفائل؟

– ليس دائمًا، فأنا كرواية إميل حبيبي "المتشائل". أتفاءل في الصباح وأتشاءم ليلاً.

– آخ يا أمين.. عدت إلى القدس مشتاقًا إلى ناسها وشوارعها، لكنني محبط من تشتت الناس، وصراعاتهم، ومشاكلهم، ولا مبالاتهم.

(٢١)

بعد ستة أشهر، عقدت جلسة المحكمة المخصصة للنظر في الاستئناف الذي رفعه سرحان وزوجته ضد قرار تجريدهما من مواطنتهما المقدسية، والطلب منهما الرحيل عن القدس.

كانوا خمسة قضاة كبار السن يضع أحدهما نظارات على عينيه. تبدو خلفهم على الحائط صورة ثيودور هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية الجديدة في أوروبا وأبوها الروحي، وبجانبه صورة ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل، وفي الجهة اليمنى علم إسرائيل وشعارات مختلفة.

وقف المحامي عزرا يعرض قضية سرحان أمام القضاة مقدمًا لهم مرافعة تستند في دفاعها إلى أن سرحان وعائلته يسكنون القدس منذ أكثر من عامين ونصف، ويدفعون ما عليهم من ضرائب ورسوم خاصة بالتأمين الوطني، وأنهم مواطنون بدون سوابق...

لم يكن دفاع المحامي يستند إلى الحق التاريخي والوطني للعائلة في القدس فلا مكان لتلك الحقوق في المحاكم الإسرائيلية، وربما تثير القضاة أكثر مما تقنعهم.

كان عزرا يحاول إقناع المحكمة بالحالة الإنسانية لسرحان، والنظر إلى وضعه كرجل قانون ومحام ناجح. كان يستجدي المحكمة لترأف بوضعه وتمنحه الحق في العيش بوطنه.

سرحان يكاد ينفجر، يود لو كان هو المحامي ليقف أمامهم قائلاً: أنا لا أطالبكم بشفقة، بل بحق تاريخي وقانوني. أنتم الذين يجب أن تكونوا هنا في هذا المكان الذي أجلس فيه، وأنا أحاكمكم.

لكنه عاد وهدأ من غضبه. كأن أحدًا يخاطبه: اهدأ يا سرحان. ليس لك خيار آخر. تخلى الكثيرون عن فلسطين. لم تعد فلسطين تهم العالم، فكيف بمواطن في القدس تريد إسرائيل إبعاده؟ اسكت يا سرحان. دعه يستجدي القاضي، فمن يدري لعله يحقق ما لم تحققه الجيوش العربية. لعله يحقق ما عجز المتسابقون على إرضاء إسرائيل بتحقيقه. لعله يحقق ما عجزت السلطة عن تحقيقه في زمن أصبحت مهمتها استجداء رواتب موظفيها، وتحويل الصراع إلى قضية داخلية. ترك العرب لنا مهمة مقاومة إسرائيل وحدنا، وهم مقتنعون أننا لن نستطيع أن نهزم إسرائيل المتحالفة مع أمريكا وحدنا. فعلوا ذلك ليجبرونا على القبول بأي حل، وعندما

نقبل بأي حل، سيقولون لنا: ها قد قبلتم بذلك بأنفسكم، نحن لم نجبركم.. ها ها ها.

المدعي العام يقف ليرد على المحامي عزرا. ينظر إلى أوراقه يقلبها. يعدل من نظارته. يبتسم كأن مرافعة عزرا قد أعجبته ودغدغت مشاعره القومية. ها هو المحامي سرحان مع عائلته يستجدون أن تمنحهم إسرائيل حق الإقامة في القدس.

أكد المدعي العام إلى القضاة أن المحامي سرحان غادر القدس في العام ١٩٨٠ إلى الولايات المتحدة، وعاد إليها في صيف العام ٢٠٠٥، وأنه خلال ٢٥ عامًا لم يعد إليها سوى مرة واحدة لمدة شهر، وأصبح لذلك مركز إقامته الأساس خارج إسرائيل، ولذلك فقد حق الإقامة فيها. سرحان الآن مقيم بصفة غير قانونية، وعليه الرحيل إلى الولايات المتحدة فورًا.

استفز سرحان فعاد إلى غضبه. وقف وطالب بحقه بالرد، فقال له رئيس المحكمة:

- سيد سرحان.. لديك محام للدفاع عنك.
- سيدي القاضي.. أريد أن أقول شيئًا.
- ولكنا لا نجيد العربية.
- سأتحدث بالإنكليزية، وسأترك للمحامي عزرا أن يترجم أقوالي.

وقف المحامي عزرا وأعلن استعداده للترجمة بعد أن وضح لهيئة القضاة ما قاله سرحان، فأشار إليه القاضي أن يتحدث بشكل موجز.

– سيدي القاضي أنا مواطن فلسطيني حفيد الكنعانيين والفلستينيين والفينيقيين في هذه البلاد قبل أن يهاجر إليها بنو إسرائيل قبل آلاف السنين. أنا مواطن كان يسكن القدس وولد فيها، وعندما احتلت إسرائيل القدس العام ١٩٦٧، اعترفتم بنا كمواطنين ومنحتمونا بطاقات زرقاء كانت تخولنا للتنقل والسفر أينما أردنا. لقد سافرت إلى الولايات المتحدة للدراسة، ثم للعمل كأي مواطن آخر إسرائيلي، وعندما عدت فوجئت أنكم تعدونني غريبًا عن البلد فقدَ فيها حقوقه الوطنية.

لقد تعرفت في شيكاغو إلى يهودي يدعى مئير بن يوسي. ولد في القدس، وسافر إلى الولايات المتحدة للدراسة والعمل، وعندما قرر العودة، لم يحرمه أحد من الإقامة فيها. أين العدالة في قوانينكم؟

القدس ليست فقط مكان ولادتي، إنها وطني الأصلي. في شوارعها كل طفولتي وذكرياتي وأحلام الشباب.

إذا نزلت معكم الآن إلى شوارعها، ستتعرف إلي حجارتها أكثر مما تعرفكم، وستعرفني أزقتها أكثر مما تعرفكم. أنا هنا لا أستجديكم، بل أطالب...

– سيد سرحان.. لقد طال حديثك. (قاطعه القاضي).

– حسنًا.. لم يبق سوى كلمات قليلة. إنني أطالب أن تستندوا في قراراتكم إلى القوانين الدولية لا إلى قوانين عسكرية وضعت لخدمة هدف سياسي. شكرًا لكم.

يقف المدعي العام ليعلن رفضه لمرافعة سرحان، مؤكدًا أن مرجع المحكمة هو القانون الإسرائيلي.

كان قرار المحكمة العليا الإسرائيلية مفاجئًا لسرحان وزوجته وأولاده وجميع من حضر معه جلسة المحكمة متضامنًا معه.

قرأ القاضي نص الحكم:

"وافقت المحكمة على إعادة بطاقة الهوية لإلهام وابنتها عبير وابنها بلال لمدة عامين، وإذا حافظت على وجودها في القدس خلال تلك الفترة ستمنح البطاقة الدائمة، أما سرحان وابنه حسن الذي تجاوز سن ١٦ عامًا، فقد رفضت المحكمة الطلب، وعليهما مغادرة البلاد خلال شهر من تاريخه."

– قرار ظالم.. قرار عنصري.. لا إنساني...

كان سرحان يرد على القاضي الذي أعلن انتهاء الجلسة، وانسحب مع زملائه. نظر سرحان إلى المحامي عزرا وسأله:

– بحق السماء.. أي عدالة هذه؟ أية عنصرية؟ إنها عنصرية مبرمجة.

تدخل أخوه الدكتور بسام الذي كان حاضرًا الجلسة:

– ما هذا القرار العجيب! الموافقة على بقاء نصف العائلة وترحيل النصف الآخر؟!

فرد عليه سرحان:

– تمامًا مثل الشعب الفلسطيني؛ نصفه هنا، ونصفه في دول الشتات. يريدوننا مقسمين ليس كشعب فقط، بل وكعائلة. إنها العنصرية المقيتة. متى سيتخلصون منها؟

حاول المحامي تهدئة سرحان والعائلة، لكنه اضطر للانسحاب أمام غضب الجميع على قرارات المحكمة.

قال غاضبًا:

– أكاد أجن لهذا القرار الجائر.

فقال له أبوه:

– لا يوجد دولة سادت وظلمت إلا وبادت. هذا كله بسبب تشتتنا وابتعادنا عن ديننا.

فقالت إلهام:

– يهود اثيوبيا يحق لهم العيش في وطننا، ونحن محرومون منه! أين العدالة؟

سرحان يتنهد.. إيه يا باب العامود، شوارع القدس التي تعرفني وفيها كل أسراري، شارع الواد، باب خان الزيت، سوق الحصر، البازار،

بـاب السلـسلة، عقبـة الخالديـة، عقبـة التوتـه، سـوق الغوانمـة، سـوق العطارين، حارة النصارى، حارة الأرمـن، مخبـز قـواديس، مخبـز الأمانـة، مخبز الصواف. اسألوهم كلهم، من منهم لم يعرفني؟ من منهم نسيني؟

أشعر بالإحباط، بالإهانة.

أشـعر أن كـل مـا حلمـت بـه يتكـسر عـلى صـخرة التراخـي العـربي والفلسطيني.

يتدخل حسن بالنقاش:

- لماذا نحن العرب منقسمون؟

- لأننا يا بني نبحـث عـن مـصالحنا الفرديـة، لا عـن مـصالح الأمـة. أرجو أن لا يحبطك هذا الوضع. أنتم جيـل الـشباب علـيكم مهمـة تغيـير هذا الوضع.

فقالت أم سرحان:

- والله كنـا قبـل مجـيء الـسلطة في وضـع أفـضل. توقعنـا خـيرًا مـع عودتهم، فعدنا إلى الخلف خمسين سـنة. كـان النـاس يتـضامنون معًـا، أمـا اليوم فالخلافات والسرقات والفساد. لم نعـد كـما كنـا قبـل عـشرين سـنة. السلطة خربت النفوس، وأعطت الحكام العرب الضوء الأخضر لإقامـة علاقات علنية مع إسرائيل.

هز سرحان رأسه ساخرًا:

– ألم أقل لكم؟ اتفاقية أوسلو خربت قضية فلسطين وطعنتها بالصميم.

حرك سرحان أزرار الراديو لعلّه يستمع إلى شيء يخفف عنه غضبه، فلا يعرف بعدُ ما الخطوة التالية التي عليه القيام بها.

صوت المذيع من الراديو: أعلنت الجامعة العربية تضامنها مع الشعب الفلسطيني، وطالبت إسرائيل بوقف الحفريات تحت المسجد الأقصى.

ضحك أبو سرحان.. ها ها ها، وعلق قائلاً: غدًا ستلتزم إسرائيل بالقرار.

صواريخ على مستوطنة سديروت، أدت إلى جرح مستوطن إسرائيلي ووقوع بعض الأضرار في الممتلكات.

صفق حسن مبتهجًا.

– الله أكبر.. اضربوا هؤلاء الكلاب.

فقالت أم سرحان:

– غدًا سيضربون غزة بالصواريخ، وسيستشهد عشرة منا على الأقل.

فقالت إلهام:

– صحيح، لكننا إن لم نرد عليهم فلن يتوقفوا عن قصف غزة. أشعر أن هذه الصواريخ قد أشفت غليلي.

فقال لها أبو سرحان:

– يا ابنتي، هذه الصواريخ تمتص نقمتنا وغضبنا، لكنها لا تقدم شيئًا ملموسًا على الأرض؟

– لماذا يا أبي؟ (سأله سرحان)، ثم تابع:

– ألم تحرر تلك المقاومة غزة؟

– صحيح، وقد أنهت مهمة، أما الآن في ظل الانقسام الفلسطيني فلا أرى فائدة من ضرب صواريخ لا تهش ولا تنش.

– لم يبقوا لشعبنا خيارًا آخر. إنهم يحاصروننا في كل مكان. يقتلوننا. يطردوننا. يرحلوننا. ماذا أبقوا لنا؟

– ماذا قدموا لعرفات؟ حتى حدود ١٩٦٧ لا يريدون التنازل عنها.

تدخلت إلهام قائلة:

– أرجوك حبيبي.. زهقت السياسة. الآن علينا اتخاذ القرار: ماذا سنفعل؟

صمتت ثم قالت:

– ما رأيك لو سكنا في الأردن؟ إنها قريبة، ويمكننا العيش فيها.

– القرار صعب، وما زلت أدرسه. في رأيي أنه خيار بين الجنة والنار، فالثانية سهل الدخول إليها.

ما أكثر المعاصي وما أسهل ارتكابها، لكن دخول الجنة يحتاج إلى تراكم من عمل الخير، والعبادة، وطاعة الله. والبقاء في القدس كذلك تمامًا،

يحتاج إلى الصبر، والصمود، والتضحية، وتحمل الصعاب. اسألوا أبانا آدم وأمنا حواء يخبراكم بذلك.

قال حسن مازحًا:

- لو أبونا آدم لم يأكل من الشجرة لكنا الآن في الجنة.

ضحك سرحان وقال له:

- يا حسن.. هل ستلقي اللوم علي أنا؟

- لا أقصد بابا سرحان، بل أبانا آدم.

- أبونا آدم صدق أمنا حواء عندما أعطته ليأكل.

فقالت إلهام:

- يا سلام! يعني حواء السبب؟ لماذا وافق آدم؟

- لأنه لا يستطيع رفض طلب حواء.

ضحك حسن وعبير وبلال.

فقال حسن:

- ماما.. ما دام لا يرفض لك طلبًا، اطلبي منه أن يشتري لي تلفون خلوي لو سمحتِ؟

ضحك الجميع، فقالت عبير:

- وأنا كمان.

وقال بلال:

- أنا الأول.

علق سرحان قائلاً:

- أنا لست آدم! أنا بابا سرحان.

ها ها ها ها.

(٢٢)

في اليوم التالي من قرار المحكمة، قال له أبوه في لقاء ثنائي جمعهما:

- يا سرحان.. عندي اقتراح أرجو أن تفكر به، ولا تتسرع برفضه.

- وما هو؟

- لصديقي الحاج مصطفى تاجر الملابس المستوردة صاحب يهودي، أو يمكنك القول إن علاقته به جيدة، وهذا اليهودي كان عقيدًا في الجيش وتقاعد، وهو الآن من أنصار حركة السلام لديه شبكة اتصالات واسعة، وقد عرضت على الحاج مصطفى أن يطلب من صاحبه التوسط لدى اليهودي ليساعدك لدى دوائر الداخلية في إعادة البطاقة لك وللعائلة.

- يا أبي.. الله يسامحك. أتريدني الاستنجاد باليهود؟

صمت أبوه لحظة حتى هدأ ثم تابع:

- يا بني.. لا تكن متصلبًا في رأيك! أنت محام واع، وتعرف أن اليهود أنفسهم حاولوا قديمًا الحضور إلى فلسطين من أوروبا عبر طرق كثيرة، حتى أنهم يومًا ما عرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني الفلوس لحل

مشاكله الاقتصادية مقابل السماح لهم باستيطان فلسطين ورفض طلبهم، واليوم فإن أحفاد السلطان يطلبون الفيزا من إسرائيل للسماح لهم بزيارة فلسطين إن رغبوا بزيارتها. أنت لجأت إلى محاكمهم على الرغم من أنك تعرف أنها جائرة، فقد سمعت ما حصل مع غيرك من قبل. لماذا لا تجرب كل الطرق؟ ليس المهم كيف، المهم يا بني أن نصل هدفنا. ترحيلك مع حسن يعني ترحيل كل العائلة، أم هل سيعيش كل منكم في دولة؟

صمت سرحان لا يدري ماذا يقول.

فقال له أبوه:

- ماذا برأسك الآن؟

- وماذا سيفعل صاحب مصطفى أكثر مما فعله المحامي؟

- وماذا سنخسر؟ على الأقل لن يكلفك شيئًا.

- لكنه سيذهب إلى المخابرات مباشرة، فهم الذين يصدرون الأوامر. هل تعتقد أن القاضي هو الذي يصدرها؟ خسارة.. أصبح سرحان يستجدي إسرائيل لحقه في الإقامة في القدس!

- وماذا نملك غير ذلك؟

- نملك كل شيء، لكننا كمن ينام على كنز لا يعرف عنه شيئًا.

هز سرحان رأسه وقال لأبيه:

- حسنًا.. لك ما تريد. حدد الموعد للقاء مصطفى.

عندما علمت إلهام بخبر نيته عن توسيط أحد المسؤولين السابقين في الجيش الإسرائيلي قالت له:

– وهل سيساعدك مجانا؟

– لا أدري، لكن والدي يقول إنه صاحب أحد أصدقائه. ألك رأي آخر؟

– لا.. لكن علينا التفكير منذ اليوم ماذا سنفعل.

– بالنسبة لك ولعبير وبلال، المسألة محسومة، ستبقون في القدس حتى لو تم ترحيلنا، على الأقل لن نستسلم بسهولة، ربما آن الأوان لتحرك أوسع للجنة مواطني القدس الذين تعتزم إسرائيل ترحيلهم.

– وهل سنتركك وحسن ترحلان وحدكما؟

– سنقاوم قرار الترحيل.

– ولكن حسن في المدرسة.

– ألم يكن اللاجئون الذين هجروا قراهم في المدارس وفي بيوتهم وأراضيهم؟ لا تقلقي إنه رجل. لن نرحل إلا بالقوة.

– وماذا لو رحلوكما؟ هل تستبعد ذلك من إسرائيل؟

– لا أستبعد. سنرى في حينه. أنت الآن حضّري نفسك للمرحلة القادمة، واهتمي بعبير وبلال.

– وأنت وحسن.. من لي غيركما؟

- هل تخشين علينا؟

- طبعًا، ألا يخشى النصف على جزئه الآخر؟

- سنعود ونلتحم معًا.

- لكنها ليست مهمتك وحدك. إنها مهمتنا معًا. أنت ستقاوم الترحيل، وأنا سأقاوم الانفصال.

- كأنه قدرنا أن نلتحم بالمقاومة.

- هل ستنتظر حتى يأتي الجيش ويسحبكم إلى المطار؟

- لا.. بعد أن نرى ماذا سيعمل مصطفى مع صاحبه اليهودي لا بد من خطوات.

فجأة دخل عليهما حسن، بعد أن سمعهما يتحدثان. قال لهما:

- ما هي الخطوة القادمة بالنسبة لي؟

فقالت إلهام لسرحان:

- ما رأيك لو أرسلناه يكمل دراسته لدى أحد أقاربك في شيكاغو، وبعد المدرسة يلتحق بالجامعة هناك؟

قبل أن يجيب سرحان قال حسن:

- لن أسافر بدونكم.

فوجئ سرحان بقرار حسن. نظر إليه وقال له:

- وماذا ترى؟ أشركنا برأيك.

- أنا معك يا والدي. سنواجه القرار معًا.

ابتسم سرحان:

- هل أنت مستعد للمواجهة؟

- حتى النهاية.

زادت ابتسامته اتساعًا. اقترب من حسن وقبّله ثم قال له:

- الآن أشعر أنني انتصرت. الله.. ما أجمل أن يسلم الآباء راياتهم لأبنائهم بعد أن يكونوا قد اطمأنوا على قدراتهم على حملها.

نظرت إلهام مستغربة:

- ألم تقل لي يا حسن أن أقنع أباك كي تكمل تعليمك في الولايات المتحدة؟

- نعم، ولكن الأحداث غيرتني. لن أتركهم يهنأون بأرض أجدادنا ومهد حضاراتنا وثقافتنا.

- أوف.. أوف.. أوف.. من أين لك هذا الكلام؟

- وهل أنا صغير؟ أنسيت أن أبي محام؟!

- أنسيت أمك؟

- كلا، وأمي إلهام أخت الأسير أحمد، ومن يدري لعلي أرى خالي أحمد في السجن بعدما منعوني سابقًا من زيارته.

– بعيد الشر يا حسن. لا.. لا أريدك عند خالك أحمد. أريد أحمد عندك هنا.

– إذا فشلت وساطة صاحب مصطفى، أفكر باستئجار شقة صغيرة لحسن في رام الله، ونقله إلى إحدى مدارسها حتى نرى ماذا سيجري.

– لا بأس، وسأتصل بكم من هناك بالهاتف الخلوي، فلدي الآن جهازي الخاص.

قالت له أمه:

– منذ متى؟

– منذ أيام. لم أخبركم حتى لا تطالب عبير بمثله.

– ولكنك لم تخبرني.

– حتى لا تفتحي لي سين وجيم: كم ثمنه؟ متى اشتريته؟... الخ. لا تقلقوا، اشتريته من فلوسي، ولا أضيع وقتي به، فأنا أدرس ليل نهار، كما ترون لا أستطيع التحرك كي لا أقع في قبضة الجيش.

(٢٣)

العقيد يعقوب شارك في حروب كثيرة ضد الفلسطينيين، وضد العرب. يؤمن بحق اليهود التاريخي في فلسطين. حصل على وسام من رئيس الدولة بصفته أحد المحاربين القدامى. بعد أن تقاعد أصبح بعد ذلك من دعاة السلام خصوصًا بعد الانتفاضة الفلسطينية الأولى، شعاره الآن: "آن الأوان لوقف سفك الدماء بين الشعبين، وإرساء السلام العادل ليعيش أولادنا بسلام وأمان وبدون ضحايا من الجانبين."

أصبح عضوًا في السنوات الأخيرة من عمره في حركة السلام الآن، وصار ينشط في أوساط الحركة ودعاة السلام الفلسطينيين لوقف نزيف الدم.

تعرف إلى مصطفى عندما كان يتجول في شارع صلاح الدين مع زوجته، فدخل إلى أحد المحلات التجارية بعد أن لفت انتباهه أحد القمصان، وهناك تعرف إلى صاحب المعرض مصطفى بالصدفة، ودار بينهما نقاش انتهى إلى اتفاق الطرفين على استمراره، ومع الأيام تطورت

بينهما العلاقة، وتبادلا الزيارات، خصوصًا بعد أن عرف مصطفى أن يعقوب من دعاة السلام.

تردد العقيد يعقوب في البداية من مساعدة سرحان وقال لمصطفى:

– لم تعد الأمور كالسابق يا مصطفى، فأنا الآن من حركة السلام غير مرغوب لدى الجنرالات الحكام، ولا يسمعون كلامي.

لكنه بعد إلحاح من مصطفى قرر خوض غمار التجربة.

كان سرحان حذرًا في لقائه مع العقيد يعقوب، فهو لأول مرة يجتمع مع رجل من المؤسسة العسكرية.

كان يحدث نفسه: أصحيح أنه متقاعد، ورجل سلام؟ لكنه من العسكريين الذين قتلوا أبناء شعبنا. رجل مجرم، قد يكون في نظر شعبه بطلاً قوميا، لذلك منحوه وسام رئيس الدولة. أليس مع هؤلاء يصنع الأعداء السلام؟ أليس المتحاربون هم الأقدر على وقف نزيف الدم؟ لماذا ترى أصبح رجل سلام الآن؟ هل اكتفى بمن قتل؟ هل شعر بالذنب؟ هل اكتشف أن القضاء على الشعب الفلسطيني وهم؟ أيًّا كانت الأسباب، فمن يجنح منهم للسلم أفضل من الذي يجنح للحرب؟! لكن أي سلام يريده معنا؟! إذا كنا نحن الفلسطينيين مختلفين في ما نريد فلماذا نلومهم؟ ولكن، ألا يختلفون هم ضدنا أيضًا؟ منهم من يريد قتلنا، ومنهم من يريد ترحيلنا، ومنهم من يريد منحنا جزءًا من أراضي الضفة

وغزة، ومنهم من يتكرم علينا ويوافق على التنازل عن الضفة وغزة دون القدس!!

إنهم يختلفون من موقع قوة، اختلافهم لا يؤثر على قوتهم، لكنا نختلف من موقع ضعف. ما أسوأ أن يختلف الضحايا في مواجه القتلة، إنها مصيبة المصائب.

أشعر بالراحة بالحديث معه كأنه يعرف كل خبايا الساحة الفلسطينية. لم يبق لدينا أسرار نخبئها. جميل أن يكون في صفوف الأعداء رجل بهذا الحماس إلى السلام، لكن.. لا أعرف كلما أتذكر ماضيه أكاد ألعن السلام.

ربما رجال القانون لا يصلحون لتلك اللحظات. كنت أحلم بيوم يحاكم فيه المجرمون على جرائمهم، لكن كيف يمكن أن يحاكم الضحايا جلاديهم عندما يصنعون السلام معهم وسياط الجلادين فوق رؤوسهم؟

إنه التاريخ الذي لا يرحم الضحايا، ولا يئن لأناتهم. قد يكتفي بأن يسجلها على صفحاته، لعل الأجيال اللاحقة، تعتبر من أحداثه.

توجه العقيد يعقوب بعد أيام لمقابلة قيادة المخابرات العسكرية في تل أبيب، طارحًا عليهم موضوع سرحان:

– ما الذي يدفعكم لرفض بقائه في القدس والإصرار على ترحيله؟!

– سيد يعقوب.. لقد ألغيت إقامته، فهو لم يعد من سكان القدس، وفقد حق الإقامة.

ضحك من الإجابة ثم قال:

- أتقولون لي هذا الكلام؟! أنتم تطبقون القانون حسب هواكم. أنا لست سرحان لتعيد علي الأقوال التي يكررها العاملون في مكتب الداخلية. أنا أسألكم بشكل واضح: لماذا رفضتم بقاء الرجل مع زوجته وأولاده؟ ولماذا تريدون طرده؟ وهو محام معروف، ورجل مسالم، لم يمارس أية أعمال عنف ضد إسرائيل.

- سيد يعقوب.. لقد تظاهر ضد الحكومة، وحرّض على الشغب، ويقوم دائمًا باتهام المحاكم الإسرائيلية بأنها عنصرية...

- ألا تعتقد أنه لو وافقت المحكمة على منحهم حق الإقامة لتغيرت وجهة نظره تجاهنا؟!

- وهل تريدنا أن نجعلها سابقة قانونية لكل من يريد العودة منهم؟!

- ومتى سنصنع السلام معهم إن كنا لا نريد المسالمين منهم العودة؟!

- إنها أرض إسرائيل.

- وهل أجهل ذلك؟

- لماذا أنت مهتم به إلى تلك الدرجة؟!

- إنه صديق صديقي مصطفى، رجل السلام الفلسطيني!

- حسنًا.. هناك إمكانية لمساعدته عن طريقك. لماذا لا تعرض عليه التعامل معنا؟

- تريدني أن أعرض عليه التجسس لصالحنا؟!

- لماذا تقولها بقرف؟ ألا تهمك مصلحة إسرائيل؟

- بالتأكيد تهمني، لكن ليس بتلك الطريقة. أنت تعرف أنني عقيد متقاعد في الجيش، أحمل وسامًا من الدولة، ولم أحضر إلى هنا لأتوسط لجاسوس. إنه مواطن ولد في القدس، ويحمل بطاقة دولتنا التي منحناها له منذ حرب الأيام الستة العام (١٩٦٧)، ولا أجد سببًا لإلغائها .

- لماذا لا تعرض عليه الأمر؟

- أرفض هذا الطلب. إنه إهانة لي!

- هل ترفض عرض الأمر عليه، أم ترفض أن يكون جاسوسا لنا؟!

- أرفض الأمرين.

صمت برهة ثم قال وهو ينظر في وجه مسؤول المخابرات العسكرية الذي يجلس خلف مكتبه:

- لقد جئتكم للتوسط لصديق عربي، وليس لجاسوس!! ولو كنت أعرف أنه جاسوس أو يمكن أن يكون جاسوسًا لما قبلت التوسط له، فأنا لا أقبل أن أكون صديقًا لعربي رأسه إلى الأسفل، بل رأسه إلى الأعلى بكرامة. إسرائيل تريد السلام مع هؤلاء العرب الذين يرفعون رؤوسهم أمامنا.

- هل هذه محاضرة سيد يعقوب؟!

- هل أفهم من كلامكم أنكم ترفضون؟!

- ولماذا علينا أن نقبل؟!

- ألا تخطو إسرائيل نحو السلام خطوة؟

- ليس قبل أن تتوقف صواريخهم وتحريضهم علينا!

- ولكنكم بطرد المواطنين الأبرياء تحولونهم أو تحولون أولادهم إلى إرهابيين ضدنا. سياستنا بالتضييق على الناس تقوي من حماس والجهاد الإسلامي!

- سيد يعقوب.. لا أريد إضاعة وقتك. أعتذر. لا أستطيع مساعدة سرحان أو ابنه حسن. يكفي أننا سمحنا لزوجته وطفلين له بالبقاء.

- هل جننتم؟! تريدون أن تقسموا العائلة قسمين كأنكم تطردونهم بطريقة أكثر حضارية!!

(٢٤)

الخيارات أمام سرحان تقلصت، ولم يعد أمامه الآن سوى أمرين؛ إما الرحيل اختياريًّا أو رفض القرار وعدم الامتثال لترحيله حتى يعتقلونه ويتم ترحيله بالقوة. هم يرفضون حتى وجوده، فكيف سيصنعون السلام مع شعب بأكمله؟

قال لإلهام عندما سألته عما يفكر به:

- علينا التوقف عن انتظار صلاح الدين القادم على فرس يحرر القدس. ولى زمن الأفراد، والآن زمن الشعوب. إنه زمن الناس لتهب وتصنع تاريخها، وتبني أحلامها على أرض الواقع. أعترف لك أنني أكره إسرائيل، أكره هذه الدولة العنصرية.

- خلاص.. غنِّ مع شعبان عبد الرحيم أغنية "أنا بكره إسرائيل".

ضحك ثم تابع:

- آه.. لو ألتقي به لطلبت منه تغيير بعض الكلمات. لو يضيف المقطع الآتي إليها:

"أنا بكره إسرائيل/ علشانها عنصرية

ويا ريت عزرائيل/ ياخدهم مية مية"

ها ها ها.

– أكيد ستصادر الحكومة المصرية الشريط كي لا تتهم بالتحريض على إسرائيل، وتقطع أمريكا عنها المساعدات.

– هل بقي شيء لم نتهم به؟! على الأقل ستشتهر الأغنية وتحفظها الناس.

– الآن لم يبق لدينا وقت طويل. ما العمل؟! ما هي الخطوات العملية التي أخبرتني بأنك ستقوم بها؟

– سأقوم الآن بإعداد مذكرة بالموقف لأقدمها غدًا إلى قناصل الدول الأجنبية في القدس. سأتوجه مع لجنة من سكان القدس لزيارة بعض القنصليات، وبعد العودة سوف نناقش بقية التفاصيل. أما الآن اتركيني وحيدًا في مكتبي لأعد الأوراق اللازمة. اتصلي بأمين وبلّغيه أنني سألتقي به غدًا ليصطحبنا في جولتنا الصباحية.

في اليوم التالي كان سرحان مع ثلاثة مع لجنة مواطني القدس المهجرين مع الصحافي أمين، يلتقون القنصليات الأجنبية، ويقدمون لهم مذكرتهم، ويشرحون لهم قضيتهم مطالبين بالضغط على إسرائيل لوقف

إجراءاتها اللاقانونية ضدهم، وقد تعمد أن يترك اللقاء مع القنصلية الأمريكية لتكون الأخيرة.

قدمت اللجنة نسخة من المذكرة باللغة الإنجليزية إلى القنصلية الأمريكية، وطالبت بالاجتماع مع القنصل لشرح الموقف له.

وبعد انتظار ساعة كاملة، وافق القنصل على لقائهم بعد ما عرف أن اللجنة تضم ممثلاً عن الصحافة، ومحاميًا أمريكيًّا هو سرحان.

استمع لهم القنصل، وأبدى تفهمه لمطالبهم، ووعد بنقل وجهة نظره إلى المسؤولين في وزارة الخارجية الأمريكية.

في ختام اللقاء قال المحامي سرحان للقنصل:

– سيدي القنصل.. إسرائيل تدعي أنني فقدت حقي في وطني لأنني عشت فترة في الولايات المتحدة وأحمل جنسيتها، وها أنا اليوم أمام اللجنة، وممثل الصحافة، أقدم لك شهادة الجنسية الأمريكية، ورسالة تؤكد تنازلي عن جنسيتي الأمريكية.

قدم سرحان كل الأوراق والمستندات للقنصل أمام استغراب جميع الحاضرين، بما فيهم القنصل، فقال له باستغراب:

– هل أنت جاد في طلبك؟!

– لم أكن أكثر جدية من اليوم.

– هل تعرف أنك إن تنازلت عنها لا تستطيع إعادتها؟!

– أعرف ذلك. تكفيني جنسيتي الأصلية.

فقال له القنصل:

– ليس من صلاحياتي الموافقة أو الرفض، ولكن سأرسل لك الآن موظفًا لتوقع أمامه على الوثائق اللازمة لذلك. أنا آسف لسماع ذلك، واستأذنكم.

قال لسرحان أحد أعضاء اللجنة بعد خروجهم من القنصلية:

– يا سرحان.. ماذا لو طردوك؟ أين ستذهب؟

– لن يطردوني، فأمريكا لن تقبلني الآن.

فقال له عضو اللجنة الثاني:

– لا يهم أين يطردونك حتى لو إلى الصين. كان عليك ترك خط للعودة.. خط رجعة لك.

– هذا هو ضعفنا خط الرجعة. أنا مثل مواطني القدس القاطنين في ضواحيها الذين ألغت إسرائيل حق مواطنتهم المقدسية.

فعلق العضو الثالث:

– نرحب بك معنا. يمكنك السكن في ضاحية البريد فلن يهتموا بك هناك.

فقال الأول:

– لكنه سيكون مقيد الحركة، وسيمنع من دخول القدس، والأهم لو صادفوه مستقبلاً على حاجز تفتيش فسوف يطردونه حتى لو كان يعيش في الضفة.

تدخل الصحافي أمين:

– مواجهة إجراءات الاحتلال تحتاج إلى الكثير من التضحيات، وما فعله سرحان رائع. دعوني الآن ألتقط لكم بعض الصور لتكون غدًا حديث الصحافة، وأعطوني نسخة من المذكرة.

لم تصدق إلهام ما فعله زوجها:

– من غير المعقول أن تتنازل عن حق من حقوقك لأنهم يسلبونك حقًّا آخر؟!

– أشعر الآن بالسعادة. إلى أين سيطردونني؟

– سرحان.. إنهم يريدون طردك لأنهم لا يريدونك في البلد، والمسألة ليست أيهما تختار، هل سيسمحون لك الآن البقاء في القدس؟ ماذا عن مدخراتك في مؤسسة الضمان الاجتماعي الأمريكي؟ أليس ذلك من حقك؟! لقد تنازلت عن حقوقك القانونية.

– الطريق إلى القدس مليئة بالتضحيات.

– الحمد لله أنك لم تفعل ذلك مع حسن.

– لا أستطيع، فهو صاحب الحق بذلك، هو مولود هناك، جنسيته ليست مثلي، وقضيته مرتبطة بي، وليس العكس.

– وماذا سنفعل معه الآن؟

– سأستأجر له غدًا شقة في رام الله، وأعمل على نقلة إلى إحدى مدارسها المعروفة. سأزوره كل عدة أيام، وسنبقى على اتصال معه. لن نتركه وحده.

– وماذا لو طردوك؟

– إلى أين؟ إلى أمريكا؟ لن تقبلني أمريكا.

– وهل يهمهم إلى أين؟

– إلى الأردن؟ هناك معاهدة. إلى مصر؟ لم يطردوا أحدًا سابقًا إلى مصر، وهناك معاهدة.

– لم يبق سوى لبنان.

– ليس بهذه الخطورة السياسية عليهم.

– قد يفعلوها.

– لدي بعض الأصدقاء هناك من أمريكا. ستكون فرصة للقائهم وزيارة لبنان.

– يا رب.. ما هذه المصائب؟!

– ألم أقل لك؟ قضيتنا مثل قضية الشعب الفلسطيني إن نجحت، تقدمت قضيتنا خطوة إلى الأمام.

– ألا توجد إمكانية لاستعادة جواز سفرك والاعتذار للقنصلية عما حصل؟!

– لن أفعلها. أشعر اليوم بالراحة. المحامي الفلسطيني العربي سرحان، ليس الأمريكي، وليس الأمريكي الفلسطيني، وليس الأمريكي العربي، هذا اللقب الجديد الذي كنت أحمله كان يشكل كابوسًا علي، كان ثقيلاً، لم أعد أتحمله. أنا الآن أشعر أنني خفيف الوزن. أزحت عن كاهلي كل الأثقال. هذا اللقب أتعبني، إنه لقب لا فخر فيه. آه لو توافقين وتتنازلين مثلي عنها.

– لا لن أفعل لأنها حق لي. ليس من حق إسرائيل التدخل في شؤوننا. حقنا في وطننا ليس مجالاً للمساومة على حقوق أخرى.

– لا إله إلا الله.

– محمد رسول الله. لا أريدك أن تخسر أكثر مما خسرت.

– وماذا خسرنا بعد؟

– خسرنا قضية المحكمة، بطاقة الهوية! حق المواطنة.

– المحكمة هي التي خسرت.

– إنك تفلسف الأمور يا حبيبي.

نظر إليها معاتبًا:

- أنسيت أنني محام؟

- وماذا خسرت المحكمة؟

- خسرت نزاهتها.. خسرت عدالتها المفترضة.

- وهل ربحنا نحن؟

- قضية القدس أكبر مني، وأنا واحد من الذين يحملون رايتها.

- ومن يا ترى سينتصر في النهاية؟

- من يصمد أكثر.

(٢٥)

مرت شهور على قرار المحكمة العليا وسرحان ينتظر مصيره المجهول. اطمأن على حسن قليلاً، فهو الآن في رام الله، أنهى سنة جديدة من الدراسة، ولم يبق سوى سنة أخرى وينهي المدرسة. أما عبير وبلال فكان وضعهما جيدًا في المدرسة. كان حسن أحيانًا يأتي إلى بيت أهله هاربًا كالفدائيين الذين يقتحمون الحدود، ولا يعرفون متى سيعودون. الطريق من رام الله إلى القدس محفوفة بالمخاطر، ونقاط التفتيش تشبه تلك الموجودة على الحدود بين الدول، لكن حسن مثل غيره الذين يتجاوزون كل شيء لأنهم لا يسيرون في الطريق العادي، بل ينتقلون عبر أودية وجبال لا تخلو من دوريات متنقلة للجيش، والويل لمن يلقون القبض عليه. سيعدونه قادمًا في عملية استشهادية، وإن نجا من القتل تكون رحمة الله قد حلت عليه.

كانت أمه والأولاد يزورونه كل أسبوع ويقضون معه يومًا كاملاً، هكذا صار بيته مثل بيت الضيافة فيه كل شيء؛ ثلاجة، وغسالة، وتلفاز،

حتى قناة الجزيرة صار يتابعها. من يعش في فلسطين ويواجه القمع الإسرائيلي لا يمكنه الهرب من السياسة، إنها تفرض عليه نفسها.

كانت أمه وعبير يساعدانه في غسيل الملابس وطهي الأكل، حيث تحضر له أمه الأكل لعدة أيام، وما عليه سوى تسخينه وتناوله.

أصبح لدية جهاز كمبيوتر لا أحد يشاركه فيه، لكنه يضطر عندما تزوره أمه مع عبير وبلال أن يتنازل لهما ليلعبا عليه حتى يستريح قليلاً.

أما أبوه فكانت زيارته أقل بسبب كثرة الحواجز. كان السفر بالنسبة إليه إلى رام الله مثل السفر إلى الأردن، وكان أحيانًا يحاول العودة متجاوزًا نقطة التفتيش قرب مخيم قلندية لأن الجنود هناك لديهم أوامر بالتشدد مع المواطنين.

الصيف حار، وحسن بدأ عطلته السنوية، على الرغم من ذلك فهو دائمًا مشغول. أصبح لديه العديد من الأصدقاء في رام الله، وقد تعرف إلى إحدى طالبات المدارس، وأصبح يلتقي معها أحيانًا كأنه اليوم يشق طريق الحياة معتمدًا على نفسه.

في أحد الأيام قرر سرحان أن يزور ابنه بشكل مفاجئ وينام عنده، يريد أن يطمئن على وضعه في رام الله، فهو هناك وحيد ولا يريده أن ينحرف مع زملاء السوء على الرغم من أنه يثق بابنه وبخياراته في الحياة.

وصل شقه ابنه في الطابق الثالث، وقبل أن يضغط على زر الجرس سمع صوت حسن قادمًا من خلف الباب كأنه طرب يغني أغنية عبد الحليم حافظ القديمة جدًّا:

"بتلوموني ليه؟

لو شفتم عينيه

حلوين قد إيه

حتقولوا انشغالي

وسهد الليالي

مش كثير عليه

ليه بتلوموني؟"

الله. حسن يغني "بتلوموني ليه؟" هل بدأ يحب الولد؟ كأنه يكرر حياة أبيه.

توقف قليلاً قبل أن يطرق الباب متسائلاً: الصوت صوت حسن، لكن من أين هذا العزف المصاحب لصوته؟ أهو آلة تسجيل لصوت العود أم أن أحدًا يعزف العود عنده؟

كأنه يحب لمياء جديدة! هل يرث الأبناء قلوب آبائهم، ومشاعرهم، وأحاسيسهم، ولحظات عشقهم؟

يا لهذه الأغنية التي لها في القلب ذكريات جميلة!

كـأنني جئـت لأفاجئـه بالزيـارة، ففـاجئني باسـتعادة لميـاء إلى سـطح الذاكرة؟ لماذا يا حسن؟ لماذا توقظ في نفسي الحنين إلى أيام المدرسة؟

رن جرس الباب، فتوقف الغناء والعزف معًا، فتح البـاب، فصاح حسن:

- من؟ بابا؟! أهلاً.

هجم عليه يعانقه، وبعد أن قبل يده سحبه إلى الداخل.

كان معه الأستاذ جاد فعرفه إلى والده:

- الأستاذ جاد الطويل، مدرس موسيقى، معهد الفنون.

نظر سرحان فرأى آلة العود، وكتابًا موسيقيًّا، وآلة تسجيل فسأله:

- ما هذا يا حسن؟ هل تسجلون أغنية للإذاعة؟

- لا يا والدي، أنا الآن طالـب في معهـد الفنـون، أدرس العـزف عـلى العود، واليوم جاء الأستاذ جاد مع عوده ليعطيني الدرس هنا.

- ومن الذي كان يعزف قبل قليل؟

- أنا يا بابا.

- حسن يعزف على العود؟ لم تخبرنا من قبل؟

- أحببت أن أفاجئك بها؟

- ومنذ متى بدأت العزف؟

- منذ أشهر، لكني لم أشتر العود إلا حديثًا، وكنت أخفيه عن أمي.

- لماذا يا حسن؟

- كنت.. أخاف أن.. تمنعوني من تعلم العزف.

- أتحب الموسيقى؟

- نعم.. أحبها.

- منذ متى؟

- منذ أن.. منذ سنة.

- منذ أن أحببتها؟

- أحببتها؟

ضحك حسن وقال لأبيه:

- من تقصد؟ أنا لا...

فتدخل جاد قائلاً:

- يقصد أنك تحب فلسطين.

يا الله.. أنقذه من الموقف.

- هو كذلك عندما بدأت أعشق فلسطين، ياه كم هي جميلة!

فقال أبوه:

- لماذا لا تسمعني اللحن من جديد.

- حسنًا، سأعزف لك...

فقاطعه:

- أسمعني "بتلوموني ليه؟"

- لا بد أن للأغنية ذكريات عندك.

هز سرحان رأسه مبتسمًا:

- إنها أجمل ذكريات المدرسة! قبل أن تسمعني اللحن حضّر لنا كأسين من الشاي أنا والأستاذ جاد حتى يكون للأغنية صداها الجميل.

- طبعًا.. طبعا. أمرك يا والدي.

ذهب حسن يحضر الشاي لهم جميعًا فيما انشغل سرحان مع المدرس يسأله:

- كيف ترى حسن والموسيقى؟

- رائع.. قمة في الروعة.

- ألا تشعر أن ذلك قد يعطل دراسته؟ فالعام المقبل سنته الأخيرة في المدرسة. امتحان التوجيهي صعب والجميع يشكو منه.

- سألته عن ذلك، لكنه مصر أنه سيبدع في كلا الاتجاهين.

- وماذا ترى أنت؟

- أشعر كأنه يحب الموسيقى، وفي الطريق ليكون موسيقارًا.

- فلسطين تنجب موسيقارًا؟

- لم لا؟ إنه يعزف بمشاعره وقلبه. لقد أبدعت فلسطين في العلم والشعر والأدب، وآن لها أن تبدع في الموسيقى وسائر الفنون.

- ألهذا الحد متفائل؟

- جدًّا. آن لنا أن نخاطب العالم عبر المشاعر والأحاسيس لعلها تؤثر أكثر من الكلمات والصور والوثائق. مثل حاجتنا إلى أقلام وبنادق، نحن نحتاج إلى آلة موسيقية ننطقها لتعبر عن مشاعرنا.

- لكأنك شاعر يا جاد.

- الشعر والموسيقى، العلاقة بينهما قوية.

- أشعر بالسعادة أن لابني مدرسًا بثقافتك وسعة اطلاعك.

عاد حسن ومعه الشاي مع النعناع. ثلاث كؤوس شاي تفوح منها رائحة النعناع. حمل أبوه كأسه وقال لهما: اسمحا لي أن أجلس في شرفة البيت في هذا المساء الجميل، لأترككما تتابعان التدريب، وأستمع لكما من بعيد وأنا أراقب رام الله من هنا.

حمل حسن العود، كأنه يجدد به فريد الأطرش. شد الأوتار، وبدأ يعزف...

"بتلوموني ليه

لو شفتم عينيه"

استلقى سرحان على الكرسي الطويل في شرفة الشقةز شرب الشاي الساخن وهو يراقب رام الله بشوارعها وناسها وبيوتها وحقولها، سارحًا بالبعيد...

في أواخر سبعينيات القرن العشرين، كان سرحان يقف كل صباح عند باب مدرسة الرشيدية للذكور ينتظر حبيبته عندما تمر من هناك قادمة من بيتها الذي يقع خلف متحف روكفلر، تسير مشيًا على الأقدام تجاه مدرسة شميدت للبنات الواقعة في أول شارع نابلس على بعد حوالي ثلاثمائة متر من المدرسة الرشيدية.

كانت الطالبات في تلك الأيام لا يحملن حقائبهن المدرسية على ظهورهن، أو على أكتافهن، بل يحملنها باليد اليسرى، ويضعنها بموازاة القلب على صدورهن.

كان يتابعها بعيونه، وبعد أن تبتعد قليلاً، وحتى لا يلاحظه أحد، يلحق بها، وعندما يصل إلى موقف الباصات القديم المحاذي لمقبرة باب الساهرة مقابل مغارة سليمان يسير بجانبها، ينظر إليها، ويلقي بأدب تحية الصباح، بينما قلبه يزداد خفقانًا:

- صباح الورد يا وردة.

كان وجهها يزداد احمرارًا خجلاً كي لا يراها أحد، وعندما تتأكد بنظرات عيونها الثاقبة أن لا أحد يتلصص عليها ترد عليه مبتسمة:

- صباح النور.

في أحد الأيام تجرأ وقال لها:

- أراك ازددت جمالاً هذا اليوم!

– خجلت، وابتسمت، وأشاحت بوجهها، كادت تطير من الفرح، ثم قالت:

– الناس تنظر إلينا.

قدّم لها ورقة صغيرة بسرعة، وضعها فوق حقيبتها لتتلقفها كأنها منشور سري وعاد أدراجه. بعد أن أصبحت على مشارف مدرسة شميدت همس لها :

– أحبك.. أحبك.. أحبك.

أسرعت الخطوات باتجاه المدرسة، بينما كانت تخبئ الرسالة في جيبها، كان بائع الكعك يراقبها من بعيد مبتسمًا وهو يصيح بصوته الجهوري:

– كعك وبيض وفلافل.

إنه باب العامود، الذي يعج بالناس الذاهبين إلى العمل، والطلاب المتجهين إلى مدارسهم، والعشاق الذين يلاحقون عشيقاتهم. بائع الجرائد كان أكثرهم انشغالاً، فمعظم المارين يتسابقون لشراء الصحف لمعرفة آخر الأخبار. لم تكن الفضائيات موجودة، ولم تكن الشبكة العنكبوتية قد ظهرت، فكانت الصحافة الورقية تحظى باهتمام الناس. وحده سرحان كان مشغولاً بأخبار لمياء، وحركاتها، وتقاطيع وجهها، ونظراتها. كان يثيره خجلها الأنثوي. صمتها.. ما أجمل الصمت حينما تتحدث العيون! كأن الكلمات تغيب في لغة العيون. إنها لغة العشاق. أبجدية خاصة لا

تتغير، بدون أحرف، وبدون أصداء صوتية، لا تحتاج لوقت لتعلمها، لكنها ليست سهلة. إنها أصعب اللغات، لهذا تجد الذين يتقنونها قلة قليلة، لأنه لا أحد يفهمها إلا الذين اكتوت قلوبهم بالحب.

العشاق وحدهم الذين يعرفون تلك اللغة ومعانيها الجميلة كأنه بستان ورود. في آفاق الهوى يكفي نظرة واحدة لتنقل فيها رسالة كاملة، بل ربما كتابًا شاملاً يحمل كل ما تكنه القلوب. ما أجملها من لغة، وما أروعه من تواصل!

كان سرحان يعود إلى المدرسة الرشيدية سابحًا في بحر الغرام. يجلس بعيدًا على الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني، فيلتف حوله زملاؤه الذين عرفوا سره ولمحوه من بعيد وهو يحدثها. فجأة يتغامزون عليه بينما يسأله أحدهم:

- أتحبها؟

- من تقصدون؟

- حبيبة القلب لمياء.

يصمت سرحان، وقد فوجئ بمعرفتهم.

فيقول أحدهم معلقًا:

- قيس وليلى.

فيعلّق آخر:

- "عاشق ليالي الصبر مداح القمر".

يستعيد سرحان ابتسامتها الأخيرة ووجهها المتورد خجلاً. ما أجمل وجه الحبيبة المخضب خجلاً من كلمة حب صادقة تخرج من فم عاشق ولهان!

يناديه أحدهم:

- يا سرحان.. يا هيمان! ما سر لمياء؟ هل أخذت عقلك؟

فيهز رأسه مبتسمًا، ثم يبدأ بالغناء:

- "بتلوموني ليه؟

لو شفتم عينيه

حلوين قد إيه

حتقولوا انشغالي

وسهد الليالي

مش كثير عليه"

يبدأ الشباب بالغناء معه، كأن كلاً منهم يغني للميائه.

تفرق الأصحاب. اختفت لمياء من حياته، فبعد سفره للتعلم انقطعت أخبارها لا يعلم أين حطت بها الأقدار، صارت مجرد ذكرى في دفتر ذكرياته الجميلة، ذلك الدفتر الذي لا تؤثر فيه الرياح، ولا الأعاصير، لا أحد يستطيع الوصول إليه، ولن يصيبه التلف إلا بموت صاحبه.

ترى ما حال لمياء ابنه حسن؟ أتكون مجرد لحظة عشق طارئة؟ أم سيبني معها روضة المستقبل ليملأها زهورًا ورياحين تسر الناظرين؟

انتهى حسن من العزف، فصفق له والده قائلاً:

- رائع يا حسن. لم أعرف أنك تعشق الموسيقى بهذه الروعة.

- أتريد سماع شيء آخر؟

- لا أريد أن أعطل عليكما الدرس. تابعا. سأذهب أتمشى بشوارع رام الله لأستأنس بها، وأعود لكما بعد ساعة.

(٢٦)

سرحان مشغول بإعداد الفلافل بينما كان الطباخ عنده مشغولاً بإعداد الحمص. الوقت صباحًا. الشمس بدأت ترسل أشعتها الذهبية على القدس لتوقظ أهلها: هيا إلى العمل.

سيارة مدنية تشبه سيارات المخابرات الإسرائيلية. فتحت الأبواب. نزل الجميع دفعة واحدة. لاحظ سرحان أنهم قادمون نحوه. هل عليه أن يهرب؟ ولماذا يهرب؟ هل سيعيش مهربًا؟ لا.. لن يهرب، فهو يعلم أنهم قادمون إليه يومًا ما. بلّغ الطباخ عنده، فطلب منه أن يخبر زوجته بما حصل فور مغادرتهم المحل.

دخلوا عليه وسألوه مباشرة:

- سرحان....

- ماذا تريدون؟

فقال له مسؤول المخابرات الكابتن أبو شادي (يسمون أنفسهم أسماء حركية عربية):

- هل هكذا يرحب الناس بضيوفهم؟

- لم تحضروا كضيوف.

- جئنا لنأخذك معنا. لا نريد منك شيئًا. لو سافرت وحدك لما رأيتنا.

قيدوه، ثم أدخلوه إلى السيارة، وتوجهوا به إلى المسكوبية.

- في الطريق لم يعتدوا عليه، فلم يكن متهمًا بشيء من قبلهم. تهمته الوحيدة أنه يعيش في القدس. يجب عليه الرحيل. هكذا قررت المحكمة.

قال له المسؤول في المسكوبية.

- ستبقى لدينا عدة أيام حتى نحضر لك أرواقك وجواز سفرك لتسافر إلى أمريكا.

- ليس عندي جواز سفر، ولم أعد أمريكيًّا.

- بسيطة.. سنصدر لك غيره.

غضب الجميع لاعتقال سرحان. صحف اليوم التالي كانت تنشر صورة سرحان الذي اعتقلته السلطات الإسرائيلية لترحيله عن فلسطين.

كانت إلهام تتوقع ذلك كل لحظة.

لم يكن مستغربًا مما حصل، بل كان الغريب أن إسرائيل تأخرت في تنفيذه.

توجه أخو سرحان ووكل له محاميًا آخر يدعى سميح.

قال له سميح:

– ليس بإمكاني فعل شيء سوى أن أسهّل له طريقة سفره لو كان لديكم جواز سفر له. لكن بما أنه لم يعد أمريكيًّا، فكل ما يمكن عمله أن أزوره وأطمئن عليه، وأتأكد أنه يتلقى الرعاية المطلوبة.

عاد بسام يخبر زوجته، وأولاد، ووالديه، والعائلة، ما يقوله المحامي. سيظل في السجن حتى ترحيله:

– لقد أخطأ أخي بتنازله عن جنسيته الأمريكية. كان بإمكانه العودة إلى شيكاغو، فبلد يعرفها أفضل من بلد لا يعرفها. وهناك بإمكانه العمل حتى يرى ما يمكن عمله.

اقترحت إلهام أن تتوجه إلى القنصلية الأمريكية وتطالبهم التدخل بشأن زوجها، فهي والأولاد ما زالوا يحملون الجنسية الأمريكية.

– فكرة رائعة.

قال لها أبوه، واستعد عدنان أن يرافقها.

توجهت إلهام في اليوم التالي مع عدنان وعرضت على القنصل الموضوع، فأكد له تضامنه معها، لكنه أخبرها أنه لا يرى ما يمكن التدخل من أجله، قال لها:

– لا أستطيع منع الحكومة الإسرائيلية من تنفيذ قرارات محاكمها. يمكننا التدخل لو تعرض للتعذيب، وغير ذلك، فماذا سنقول لهم؟ إنه شأنهم.

بعد مغادرة القنصلية في القدس، قال عدنان لإلهام غاضبًا من رد القنصل الأمريكي:

– القنصلية الأمريكية مهمتها تبرير الجرائم الإسرائيلية. لا فائدة من زيارتها، ليتنا لم نذهب.

الصف العربية في اليوم التالي نشرت العناوين التالية:

"إسرائيل تعتقل المحامي سرحان لترحيلة عن القدس".

"محام مقدسي يرحّل عن وطنه".

أما الصحف العبرية فكانت تصف سرحان بأنه مؤيد للإرهاب، فقد ترك مهنته كمحام مشهور في شيكاغو وجاء يبيع الفلافل والحمص والفول في بيت حنينا، وهناك يحرض الطلاب على الخروج عن النظام والقانون.

لم يصدق حسن أن تصل الأكاذيب عن والده إلى هذا الحد، فنشط مع زملاء له في القدس والولايات المتحدة في إرسال الرسائل إلى المؤسسات الدولية والمحلية، والمجموعات، والصحف، ومواقع الشبكة عن قضية المحامي سرحان، الذي يصر على حقه في الإقامة في وطنه، ودعوا الجميع للضغط على إسرائيل للتراجع عن قرارها العنصري.

في هذا الوقت كانت المخابرات تعرض على سرحان أن يترك القدس وحده وسوف يطلقون سراحه، لكنه رفض قائلاً:

- ليس عندي مكان أذهب إليه.

فعرضوا عليه السفر إلى الأردن، لكنه رفض، وأخيرًا عرضوا عليه السفر إلى رام الله:

- اذهب إلى مناطق السلطة.

- أنا من القدس، وسأبقى فيها.

قال مسؤول قسم المخابرات العقيد بنجامين:

- لم يبق إلا أن نشحنه إلى لبنان.

لكن رد الخارجية الإسرائيلية كان واضحًا: قضية سرحان ليست أمنية لإثارة كل هذه الضجة وترحيلة إلى لبنان.

الخيار الوحيد الذي اقتنعوا به هو استمرار حجزه في السجن حتى يمل ويرحل لوحده، لا بد أن يتراجع خلف القضبان، فنقلوه إلى سجن الرملة، بعد أن جعلوا سجنه مفتوحًا. سجين حتى ترحيله.

السلطات الإسرائيلية اتصلت بالقنصل الأمريكي وحاولت إقناعه إصدار جواز سفر أمريكي مؤقت لسرحان لترحيله وهناك يمكنكم تركه يعيش بدون جنسية، لكن القنصل اعتذر أنه ليس من صلاحياته ذلك.

فعرضت السلطات على القنصل أن يمنحة فيزا، وقالت للقنصل:

- سنمنحه وثيقة من عندنا، فهل توافقون على منحه فيزا للدخول؟

– لا.. ليس بإمكاننا فعل ذلك، فالهدف واضح أنكم تريدون ترحيله إلى أمريكا نهائيًّا بدون رغبته، وقد فقد حقه في ذلك.

فاقترح أحد المسؤولين في القدس (في الشرطة) ترحيله بدون جواز سفر، وهناك في المطار سيعتقلونه ونستريح منه، فرد عليه العقيد بنجامين غاضبًا:

– أتريد أن تستفز مسؤولي المطار؟ سيقدمون احتجاجًا ضدنا، ويعيدونه بالطائرة نفسها.

(٢٧)

وصل سرحان إلى سجن الرملة بسيارة كبيرة تسمى البوسطة، تعلوها نوافذ صغيرة للتنفس. كانت مزدحمة بالسجناء اليهود والعرب، ومعظم السجناء العرب كانوا من السجناء السياسيين،أو الذين تسميهم إسرائيل بالسجناء الأمنيين.

كان السجناء مقيدي الأيدي كل سجينين بقيد واحد بحيث لا يستطيعان الهرب إلا إذا هربا معًا، ولكن إلى أين والبنادق موجهة نحوهم؟

كان سرحان مقيدًا مع أحد السجناء العرب المتهمين بحادث جنائي كان يدعى عبد السلام الصباح، سأله في الطريق إلى الرملة:

- لماذا أنت هنا؟ هل أنت سجين أمني؟

- لا.. أنا أخطر من الأمن.

- أخطر من الأمن؟ غير معقول. لا بد أنك سياسي خطير. أنا عبد السلام، ومن أنت؟

– سرحان. محام. يردون طردي من وطني لأنني كنت أعيش في أمريكا.

نظر إليه عبد السلام مستغربًا:

– كنت محاميًا في أمريكا؟

– نعم.

– ومعك الجنسية الأمريكية؟

– كانت، وتنازلت عنها.

– لا أصدق ما أسمع. محام في أمريكا ومعك الجنسية وتعود إلى هنا؟ وماذا ستعمل هنا؟ لا بد أنك غني كبير.

– أبدًا فقد كنت أعمل في مطعم صغير في بيت حنينا.

– تبيع الحمص والفلافل؟

– من أجل القدس تنازلت عن كل شيء.

– يا رجل هل هذا كلام محام؟ محام وتعود لتبيع الحمص والفلافل؟ هل أنت خائف على القدس؟ ليتني مكانك. لو قلت لي لبعتك بطاقة هويتي.

السيارة رائحتها نتنه، ورائحة السجناء تفوح منها. الطقس حار. ليس أمامه سوى إضاعة الوقت مع عبد السلام، فهو مقيد معه، وكلما حرك أحدهما يده تحركت يد الآخر. سأله:

- ولماذا أنت هنا؟

- محسوبك خبير في سرقة السيارات الإسرائيلية وبيعها في مناطق السلطة.

- وكيف يسمحون لك بذلك؟

- من تقصد؟ السلطة؟ لا تسأل فهم يرحبون بالسيارات المسروقة. يا أستاذ.. اليهود سرقوا وطننا، وتريدنا أن نعيد لهم سياراتهم المسروقة.

ضحك سرحان لهذا القانون العجيب، وقال له:

- ألم تجد عملاً آخر أفضل لك من ذلك؟

- وأين تريدني أن أعمل؟ الأوضاع الاقتصادية صعبة. لا يوجد عمل. الانتفاضة نفضتنا. ولماذا أنت زعلان من ذلك؟ ما أقوم به حلال في حلال. إنها سرقة العدو. هم يسرقون أراضينا، وأنا أسرق سياراتهم.

- لهذا يجب أن يتحول الشعب الفلسطيني إلى لصوص سيارات؟

- لا طبعًا، هذا واجبي أنا فقط، لا أريد منافسًا لي في السوق ها ها ها. لكن قل لي يا أخ سرحان: لو كنت في أمريكا كم سنة سيحكمون علي؟

- هذا يتوقف على ثمن السيارة المسروقة، وتاريخك الجنائي، وإن استخدمت السلاح... الخ. لكن ليس أقل من سنة.

وصلت السيارة إلى سجن الرملة. دخلت الأسوار العالية من بوابة السجن الكبيرة. سجن الرملة يعد السجن المركزي في إسرائيل، وهو

عبارة عن عدة سجون مستقلة في إدارتها، بعضها للموقوفين، وأحدها للمحكومين، وآخر للسجينات، وفيه مستشفى مركزي للسجون، كان سجن الرملة الأساسي يستخدمه البريطانيون عندما احتلوا فلسطين من الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى العام ١٩١٤.

وقفت السيارة أمام بناية السجن. نزل السجناء اثنين اثنين، وتوجهوا إلى القاعة المعدة لاستقبالهم، وبعد حجزهم حوالي الساعة بدؤوا بتفريقهم إلى الأقسام المختلفة في السجن.

كان حظ سرحان في قسم (ب) العلوي الذي يتكون من عدة غرف تتسع كل منها لثمانية سجناء. في الغرفة حمام مع مرحاض. نافذة تدخل منها الشمس. باب حديدي مغلق لا يفتح إلا أثناء وجبات الأكل أو للخروج للساحة مرتين في اليوم، كل مرة ساعة، أو لنقل السجين للعيادة أو لأمر آخر. ثلثا الباب من الصفيح، لا ترى من خلاله، والثلث العلوي قضبان حديدية وأمامها شبك حديدي لا تتسع فتحاته لأكثر من إصبع اليد.

كانت الغرفة تضم مجموعة من العرب السياسيين عرّفوا على أنفسهم لدى دخوله الغرفة:

– الأخ أيمن. متهم بالانتماء لحماس. كان في العشرينيات من عمره. ذقنه متوسطة.

- الأخ صالح. متهم بالانتماء للجهاد. يبدو في الخمسين من عمره. شعره أبيض مع قليل من السواد. ذقنه طويلة. يحمل مسبحة في يده.

- الأخ وليد. يعد نفسه من حركة فتح. شاب يبدو أنه لم يتجاوز العشرين من عمره. حليق الذقن.

- الأخ صادق. شاب طويل. حليق الذقن. متهم بتقديم مساعدة لحركة حماس.

- الأخ راسم. من فتح. متهم بطعن مستوطن.

- الأخ جابر. من الجبهة الشعبية. في الثلاثين من العمر.

- الأخ علي. موقوف إداري بدون تهمة.

رحب بهم جميعًا وعرف على نفسه:

- سرحان. محام عاد إلى أرض الوطن ففوجئ بأن إسرائيل ألغت حقه في العيش في القدس وتريد ترحيله.

سلّموا عليه جميعًا. أجلسوه على أحد الكراسي الموجودة في الغرفة.

سأله أحدهم:

- وهل سيعيدونك إلى أمريكا؟

- لا.. فقد تنازلت عن جنسيتي الأمريكية وقطعت عليهم الطريق.

فردّ عليه آخر:

– رائع ما نسمعه يا أخ سرحان. تنازلك عن الجنسية تضحية لم نسمع بها من قبل. قليلون يضحون بسعادتهم الشخصية وراحتهم ليعودوا إلى وطنهم.

فعلق صادق قائلاً:

– بارك الله فيك. هذا قمة الجهاد. إنه تأكيد على تمسك شعبنا بوطنه.

فقال راسم:

– هل تتوقع أن يرحلوك إلى الأردن.

– لو أرادوا لفعلوها وأنا في القدس. علاقتهم الحسنة مع الأردن تمنعهم.

– لا يهمهم شيء. ألم يحاولوا اغتيال خالد مشعل في الأردن؟

فقال له صادق:

– ولكن قضية الأخ مشعل تختلف، فالأخ خالد مشعل قائد حركة تعده إسرائيل أحد أهدافها المطلوبة، لكن الأخ سرحان مواطن فلسطيني يريدون ترحيلة من القدس، وليس مطلوبًا سياسيًّا أو أمنيًّا.

فقال جابر:

– وهل تستبعد أن يرحلوه إلى غزة؟

فقال سرحان مستغربًا:

– إلى غزة؟

- ممكن، وحينها يعرفون أنك لن تستطيع العودة.

ابتسم سرحان وقال:

- سأقاوم الترحيل من القدس، لكن إن فرضوا علي ذلك فمرحبًا بغزة، إنها قطعة من الوطن.

أيمن:

- القطعة المحررة.

جابر يضحك:

- محررة؟! تقصد القطعة المحاصرة.

راسم:

- القطعة التي انقلبتم على قيادتها.

فرد سرحان:

- لا تختلفوا دخيلكم. يكفينا ما نحن به.

(٢٨)

كان المسؤول الإسرائيلي عن ملف سرحان قد استغرب هذا الإصرار لدى سرحان على عدم الرحيل عن القدس. قال لزميله في قسم الشرطة:

– لقد أتعبنا هذا الرجل. لم أر مواطنًا فلسطينيًّا يحمل الجنسية الأمريكية، يتنازل عنها، ويفضل السجن عن الحياة في أمريكا.

ضحك زميله وقاله له:

– يبدو أن به دماء يهودية! ها ها ها.

– أقترح أن نرتاح منه فنطلُق سراحه.

– وماذا بعد؟

– نتركه بدون بطاقة هوية، فإن سافر إلى أي مكان لن يعود، وإن بقي فيها سيظل محاصرًا.

– وماذا لو اعتقله الجيش في كل مرة على الحاجز؟

– هم يعتقلونه، ونحن نطلق سراحه إلى أن يمل ويرحل.

- وإن لم يرحل؟

- سيظل مشردًا.

لم يصدق سرحان عندما أحضروه إلى سجن المسكوبية من سجن الرملة أنهم سيفرجون عنه هناك. طلبوا منه التوقيع على بعض الأوراق وقالوا له:

- انصرف.

سألهم سرحان:

- ولكن أين بطاقة الهوية؟

- صادرناها.

- أين فلوسي في السجن؟

- اذهب وخذها من سجن الرملة.

كان سرحان يعرف أنهم يريدون خلق المتاعب له، فكيف سيذهب إلى سجن الرملة دون أوراق رسمية. طلب منهم استخدام التلفون لإبلاغ أخيه بخبر إطلاق سراحه ليأتي وينقله إلى البيت، لكنهم رفضوا.

خرج سرحان فرِحًا بإطلاق سراحه. سار مشيًا على الأقدام من المسكوبية باتجاه مفرق الطرق القريب من باب الجديد. اتجه يسارًا لينزل الشارع المائل نحو باب العامود. كان قلبه يخفق وهو يرى سور القدس من جديد. حركة الناس بعثت الأمل في نفسه.

ظل يسير نحو شارع صلاح الدين ليذهب إلى محل أخيه فهو لا يملك أية فلوس ليتصل بأحد، أو حتى ليستقل تاكسي أو سرفيس أو الباص المتجه تجاه البيت.

قبل أن يصل شارع صلاح الدين فوجئ بدورية للجيش تقف وسط الشارع تعترض المارة تسألهم عن بطاقاتهم، تبحث عن مواطنين من سكان الضفة لتعتقلهم. أوقفوه، وسألوه:

- هوية؟!

- لا يوجد هوية. صادروها في المسكوبية.

ضحكوا، وطلبوا منه رفع يديه. وجّه أحدهم سلاحه إليه فيما فتّشه الآخر.

- اسمك؟

- سرحان.

- من أين أنت؟

- من القدس.

- أين الهوية؟

- أخذوها في المسكوبية.

- لماذا؟

- لا أعرف. اسألهم.

وضعوه في سيارة الجيش واكتفوا بهذا الصيد الثمين. بعد نصف ساعة كان في المسكوبية مرة أخريز التقى به أحد المخابرات، وعندما عرف اسمه، وضعه في غرفةن وطلب منه الانتظار لأنهم مشغولون.

طال انتظار سرحان، فخرج من الغرفة ليفاجأ بأحد رجال المخابرات. سأله:

- إلى متى سأبقى هنا؟

- إلى أن يأتيك المسؤول.

- ولكن طال انتظاري. أنا كنت هنا في الصباح، و...

قاطعه:

- انتظر في الغرفة، ولا تخرج منها حتى أعود لك.

عاد سرحان إلى الغرفة ينتظر. كان يعد كل ثانية بسنة. آه لو لم يقع في قبضة تلك الدورية لكان الآن في بيته، بين زوجته وأولاده. ترى هل يعرفون أنني هنا؟ الكلاب لم يسمحوا لي أن أتصل بأحد.

أسند رأسه إلى الحائط، وصار يحلم بلحظة لقائه بإلهام بعد قليل. تراءت له باسمة فقال لها:

- اشتقت إليكم كثيرًا. لا أدري لماذا كل هذا العذاب لمواطن كل ما يريده العيش مع عائلته في بلده ووطنه.

وضع يده على خدها يتحسسه بحنان، ثم قال:

– لقد فرق الملاعين بيننا.

– قلت لك لن نستطيع تغيير البلد وحدنا، لنكتفي ببناء طوبة واحدة.

– لتكن طوبتان.

ضحكت. اقتربت منه أكثر. قبّلته بحنان، ثم قالت تداعبه:

– كأنك رأيت ما يشيب الرأس في السجن، فقد زادت شعراتك البيضاء.

قبّلها بحرارة، ثم قال ضاحكًا:

– أنت السبب. لم تعودي تهتمين بي انشغلت مع أقاربك وصديقاتك.

– أنا؟

وضعت رأسها على صدره وقالت:

– كيف وأنت عالمي كله؟ كنت أتركك تتابع المصائب التي نزلت علينا من اليهود...

سحبها إليه. طوقها بذراعيه. دقق النظر في عينيها. لا تزال هي نفسها إلهام الشابة الجميلة الممتلئة حيوية وإثارة. بريق عينيها لم ينطفئ.

قبّل جبينها، ثم ناداها:

– حبيبتي.

– أمرك حبيبي.

طبع قبلة أخرى على شفتيها، ثم تابع:

-لا أدري لماذا كلما قبلتك شعرت بالحاجة إلى مزيد من القبلات.

ثم تابع قبلاته المتلاحقة.

بعد ثوان استردت أنفاسها، وأجابت:

- طريق القبلات باتجاه واحد؛ إن بدأته لا تستطيع الإفلات منه. عليك إتمامه حتى النهاية.

عاد إلى قبلاته، فقد استعذبها بعد غياب طويل.

ثم قال:

- ألا تشعرين أن للقبلات بعد هذا الغياب لذة أروع، وقمة اللذة أن لا يكون لها نهاية. كلما قبلتك انجذبت أكثر إليك. لا أريد التوقف، وأتمنى لو أنها تكون قبلات بلا نهاية.

- وهل تستطيع الصمود؟ قد تتعب، وقد يعتريك الملل.

- كلا.. سأعيش على سحرها، وذبذبات حرارتها لذتها تسري في كل أنحائي، وكلما طالت زادت متعتها.

بعد قبلة طويلة قالت:

- آه على قبلات لا نهاية لها.

- فقال لها قبل أن يتابع قبلاته:

- إنها مثل الطريق إلى القدس لا تلوح لها نهاية، بل هي طريق بلا نهاية.

فجأة استيقظ من أحلامه على صوت أحد رجال المخابرات يسأله:

- ألم نطلق سراحك هذا الصباح؟

- نعم.

- ولماذا عدت؟

- لم أعد. أحضرني جنودكم.

هز رأسه وقال له:

- انصرف إلى البيت.

(٢٩)

غادر سرحان المسكوبية من جديد وهو يراقب الشوارع كي لا يقع في يد دورية مفاجئة مرة أخرى.

كان متعبًا. يتمنى لو تحمله سيارة فجأة إلى البيتز عندما اقترب من باب العمود خطرت على باله خطة لكي لا يقع في قبضة دورية حرس الحدود الإسرائيلي التي تقف قرب محطة الباصات، فقد قرر أن يدخل باب العمود، ومن هناك يذهب إلى باب الساهرة، ثم إلى شارع صلاح الدين .

دخل باب العمود، وعندما وصل قرب مقهى زعترة فوجئ بدورية للجيش تدقق في هوية بعض المارين، فانحرف لليسار نحو حارة السعدية فانتبه له أحد الجنود، فنادى عليه:

- أنت...

تجاهل النداء، وعندما اقترب من الباب الذي يؤدي إلى أعلى سور باب العمود، دخله متوجهًا إلى أعلى السور، فلحق به الجندي نحو حارة

السعدية، وعندما لم يره عاد الجندي أدراجه، لكنه فجأة لمحه أعلى السور، فصاح به بعد أن صوب بندقيته نحوه:

- قف ولا تتحرك.

تمسمر سرحان مكانه لا يدري ماذا يفعل. ها هو على سور القدس، فوق بوابة باب العمود، هناك كان يقف شابًّا يراقب الناس المارين، يدقق النظر بمدينة القدس، يغني مع فيروز "زهرة المدائن". كان يتخيل نفسه صلاح الدين الجديد يراقب المعارك مع الأعداء الذين يريدون اقتحام المدينة، لكن صلاح الدين لم يكن يراقب المعارك، بل كان يشارك بها، ها هو أمام الجندي الذي يصوب نحوه سلاحه، بين الحياة والموت، ما الذي فعله ليصوب سلاحه نحوه؟ وهل فعل أبناء شعبنا في حيفا ويافا وعكا شيئًا عندما طردوهم من بيوتهم ووزعوهم على أماكن تهجيرهم؟!

هل يفعلها هذا الجندي المجنون؟

رفع سرحان يديه للأعلى معلنًا استجابته لأمر الجندي، فيما صعد الجنديان الآخران فوق السور لاعتقاله مصوبين سلاحهما باتجاهه.

ما هذه الورطة يا سرحان؟

لماذا لم تستقل أي تكسي في الطريق إلى محل أخيك، وهناك تطلب من السائق أن تتصل مع أحد أفراد أسرتك من هاتفه الخلوي؟ فالسائق سيتفهم الموضوع.

هل هذا وقت عتاب؟! عليّ التخلص من ورطتي الآن، وبعد ذلك أعاتب نفسي.

أمره أحد الجنود أن يخلع بنطلونه ليتأكدوا أنه لا يحمل حزامًا ناسفًا:

- اشلح بنطلونك، وارفع قميصك!

ما هذا الطلب الغريب الآن؟! إنه فوق السور، والناس يرونه من بعيد. كيف يخلع بنطلونه بهذه الطريقة المهينة؟ ألا يعرفون أنه محام مشهور في شيكاغو؟ ضحك ثم قال لنفسه: وبائع فلافل في القدس. أربكه الأمر، واحتار ماذا يفعل، وأخيرًا قال لهم:

- أنا سرحان. محام من القدس. لا أحمل شيئًا. لقد جئت قبل قليل من المسكوبية. اسألوهم.

غضب الجنديان وانضم لهم الجندي الثالث، واتخذوا وضع القناصة، وأصدروا إليه أمرهم النهائي:

- اشلح بنطلونك، وارفع قميصك.

فصاح بهم:

- لا يوجد معي شيء. لماذا أنتم خائفون؟ تعالوا وفتشوني.

ثم خلع بنطلونه كله وبقي بكلسونه. حمل بنطلونه وقال:

- لا أحمل شيئًا.

ثم رماه عليهم.

فجأة، شعر برصاصهم يخترق جسده. حاول أن يستند إلى السور كي يظل واقفًا فلم يستطع، فارتمى على فتحة السور المطلة على باب العمود، يلقي نظرة حزينة على بلد أحبها، بينما الدم ينزف من جسده.

كانت صورة إلهام، وحسن، وعبير، وبلال، تتجسد أمامه. خيل إليه أنهم يقفون في باب العامود يلوحون له بأيديهم من الأسفل. هل وصلوا حقًّا؟ أم أن ساعة موتي قد حانت؟ أأموت فوق سور القدس؟ ولم لا؟ كم بطلاً سقط فوق هذا السور مدافعًا عن هذه المدينة المقدسة أمام الغزاة؟ وماذا أكون أنا؟ لم أمت حاملاً بندقية؟ لم أمت مقاتلاً؟ لكنني.. أموت عاشقًا على أسوار القدس! لا.. لا.. لن أموت. إني أراهم أمامي؛ ها هي أمي، وذاك أبي، وذاك...

اقترب منه الجنود. كانت دماؤه تسيل على الأرض. حركه أحد الجنود ببندقيته فلم يتحرك، فمد يده وسحبه من أعلى السور فسقط على السور بدون حراك.

بحث في جيوبه عن بطاقة له فلم يعثر على شيء، فاتصل بقيادته يعلمهم أنهم قتلوا مشبوهًا متسللاً من الضفة الغربية لا يحمل أية بطاقة.